تأليف

أحمد محمد النمر

الخطاب القرآني

دراسة في

معالم واتجاهات النصوص القرآنية

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر





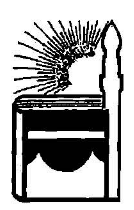
الخطاب القرآني

تأليف

أحمد محمد النمر

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر





مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: الخطاب القرآني

تأليف: أحمد محمد النمر

الناشـــر: مؤسسة أُم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: رجب ـ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

لبنان / بيروت / الغبيري ص ـ ب ٢٧٨ / ٢٥

info@Omalqora.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشيخ حسن النمر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والخلائق أجمعين محمد بن عبد الله وعلى آله الهداة الميامين، وبعد :

فإن للقرآن الكريم في نفوس المسلمين وعقولهم منزلةً لا يدانيه فيها شيءٌ ، لأنه الكتابُ الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، ولأنه الحقُّ الذي لا يخالطه ضلالٌ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ﴾[2]. ومن ثَمَّ كان للبحوث القرآنية منزلتُها الخاصةُ ودورُها الحيويُّ في صنع الإنسان. ولهذا فلا غروَ أن عكف المسلمون ـ قديماً وحديثاً ـ على النهل من مَعينِهِ الذي لا ينضب ليسموا بأنفسهم وعقولهم محلِّقين إلى أعلى مراتب العلم والمعرفة ، ومنازل الكمال والرقي .

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) يونس: ٣٢.

وهاهو باحثنا الكريم أخي ـ أحمد النمر ـ يعود على قرائه في إطلالةٍ ثانيةٍ ـ والعود أحمد ـ في بحثٍ جديرٍ بالمطالعة في شكله ومضمونه .

أما في مضمونه: فإنه يعالج أسلوبَ القرآن في الخطاب والأسلوب، مسلِّطاً الضوءَ على آثاره الروحية والثقافية والاجتماعية في نفوس مَن آمن به فرداً كان أو جماعةً. وقد أشار في ذلك إلى جوانب تنويرية لا تخلو من ذوق.

وأما في شكله: فهو صياغة عصريةٍ لأفكار هامة يفترض في عشاق القرآن العناية بها.

وفي تقديري فإن اختيارَه موفقٌ في جانبيه ، ومعالجَتُهُ ـ في مجملها ـ محمودةٌ.

وأسأل اللهَ تعالى أن يتقبله في ميزان حسناته وأن ينفع به، إنه تعالى سميعٌ مجيبٌ.

حسن النمر

الدمام

١٤٢٣/٩/١٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْـدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّيـنِ* إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[1]

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الميامين ومن اتّبعهم بإحسان إلى يوم الدين

بادئ ذي بدء يجب التمييز بين أمرين مهمين قبل الخوض في الحديث عن الخطاب القرآني، فهناك الدعوة الشاملة (كافة النبوات والشرائع السماوية) التي تعني الأوامر الصادرة من الله سبحانه وتعالى للبشرية، بما في ذلك دعوة النبي محمد ﷺ كخاتمة لكافة النبوات التي سبقتها، وهناك الأسلوب والطريقة التي اتخذتها هذه الدعوة في تعاملها مع متلقيها من الناس، وهذا ما نود إلقاء الضوء عليه في هذه الدراسة المبسطة وعنوانها المقصود والمسمى بالخطاب

---

(١) الفاتحة: ١ ـ ٧.

القرآني .

في مـا يلي من الصفحات محاولة متواضعة لقراءة انعكاسات مجمـل الآيـات القرآنـية مـن جانب آخر غير الجوانب التفسيرية أو التأويلـية أو التاريخية أو اللغويـة أو التشريعية، فلسنا من أهل هذا الاختصاص.

بـل هـي قـراءة توضـيحية إجمالـية أحاول فيها تجميع ما قد ـ وتعـني قد هنا الكثير ـ لا يستطيع جمعه وتركيبه عدد غير بسيط ممن يـتلون ويقدّسـون هذا القرآن، أو ربما هو محاولة لتلمس جانب ربما خفي على آخرين.

ولأن من يحمل في جوانبه الإيمان بقدسية هذا الكتاب، ـ وهو مـدرك لهـذا الـتقديس ـ معـنيّ بما جاء فيه، يتأكد لنا أهمية الإحاطة بتلك المعرفة ومعرفة أكبر قدر ممكن بما يقدمه للمتلقي.

لقد أوجد القرآن الكريم أكبر ثورة في التاريخ الإنساني، ولا يمكـن إغفـال دور العوامـل الـتي أسهمت في انبعاث هذه الثورة أو نقل مضامينها إلى النفوس البشرية التي تفاعلت معها.

ولم تغفـل الكـثير من الدراسات التاريخية الدور المهم والأثر الكـبير الفـاعل لبناء هذا الانسجام السريع والتام بين ذلك المجتمع

ومحتوى وأهداف تلك الثورة المقدسة، وأن مَن قام بهذا الربط يتمثل في أمرين، هما: القرآن بمضمونه وبأسلوبه الإعجازيين، والقيادة العظيمة لشخصية النبيّ محمّد ﷺ.

إن لعدم وجود الفاصل الزمني والتاريخي بين مسلمي كل عصر والقرآن، ولامتلاء الفضاء الذهني بصدى الترتيل المبارك لآيات القرآن في الحياة اليومية للمسلمين من جانب وللفاصل التاريخي والزمني - وليس الروحي- بين شخصية النبيّ ﷺ وبين المسلمين، نجد أن ملامسة الأسلوب الخطابي للقرآن متاحة أكثر حتى لغير المهتمين وغير الباحثين في المسيرة التاريخية للمسلمين.

و لكون المتلقي هو المخاطب مباشرة خلال هذه الآيات المباركة أرى ضرورة الفهم الإجمالي - على أقل تقدير -بمنعطفات هذا الخطاب الذي أوجد أكبر تأثير على الساحة البشرية حتى الآن، ولما يحمله من تأثير مستقبلي مقبل وهائل، ولكون المتلقي - المؤمن به - هو أحد العناصر المرشحة للمشاركة في هذا التغير - لذلك كلّه - أرى مثل هذه الضرورة.

وفي ذلك المسار الذي تعتري فيه الإنسان رهبة وخشية خوفاً من أن لا يصيب الحقيقة فيما يدونه بتحليله وعرضه، فقد شعرت

من جانب آخر بالسكينة والاطمئنان، حيث كانت الثوابت المشتركة هي القاعدة التي ارتكزت عليها أثناء تسجيل هذه الانعكاسات .

ولأن الحقائق القرآنية هي أكبر من قدرة العقل البشري غير المعصوم، حيث قال تعالى: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**(١).

فذلك يعني أن جوانب القصور في تلك الانعكاسات واردة أيضا.

أسأل المولى عزّ وجلّ أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون في هذا الجهد المتواضع ما يُنتفع به والحمد لله أولاً وآخراً.

أحمد محمد النمر

الدمام

٩ ـ جمادى الآخرة ـ ١٤٢٣هـ

---

(١) الحشر: ٢١.

البلاغة القرآنية

سوف يبقى الإنسان عاجزاً أمام هذا البيان الرباني، فبعد هذه القرون الممتدة منذ نزوله وحياً على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ وحتى عصرنا الحاضر لم يزل تحدّيه قائماً ومستمراً حتى قيام الساعة، وقد جاء هذا التحدّي في أكثر من آية، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) يونس: ٣٨.

(٢) هود: ١٣.

صَادِقِينَ﴾(١).

لعل من الأمور اللاّفتة هو الإبداع في الخطاب القرآني حيث لم يألف الناس في ذلك الزمن مثل هذا النوع من الصياغة التي تضمنتها الآيات الشريفة.

ومع بلوغ العرب من البلاغة في الشعر والخطب في مجتمع الجزيرة العربية حداً قارب الكمال والذروة فقد تحوّل أفراده إلى أسارى مسحورين ومبهورين مما طرق سمعهم من ذلك الأُسلوب المبتكر ولم يكن ذلك حصراً على المؤمنين به دون غيرهم، بل تجاوز الأمر إلى عتاة أعدائه ومناوئيه.

وقد استشعر هؤلاء تلك الجاذبية في أسلوبه المبتكر، حتى أصابتهم الحيرة فيما يطلقون عليه من أوصاف لتكون حاجزاً نفسياً بينه وبين غير أتباعه!

حتى أنهم لم يثبتوا على قول واحد في محاولة تشويه أبرز دلائل هذه الدعوة في أذهان الناس وتقلبوا ذات اليمين وذات

---

(١) البقرة: ٢٣.

الشمال دلالة على عجزهم أمام هذا البيان.

قال تعالى:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(١).

فأيّ حيلةٍ هذه ليطلق على صاحبها- الصادق الأمين- وصف ساحر كذاب، وكل ما في الأمر أن ما عرضه عليهم هو كلام عربي مبين مؤلف من كلمات؟

وقال تعالى:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(٢).

فأيّ حيرةٍ هذه وأيّ وهنٍ أصابهم وهم ملوك الشعر والبلاغة وفرسانهما؟

وقال تعالى:

---

(١) ص: ٤.

(٢) الأنبياء: ٥.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾[١].

فأي تهمة واهية تقرن الجنون بالتعلم والتعليم ؟

فلا هو شعر ليضارع ولا هو رواية لتنازع ولا هو خطب لتقارع.!

بذلك العجز البيّن والتهم الواهية الباطلة لهذا القول الحق والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تضعضع الاستبداد وانهزم العناد.

وهكذا يبقى الإنسان عاجزاً عن مجاراة ذلك الإبداع البياني ومذهولاً أمام ما يمتلك مفاتحه ولا يستطيع نيله!.

ولسوف تبقى وتستمر العلاقة بين المسلمين والقرآن الكريم علاقة فريدة من نوعها، فهي أكبر من علاقة مجتمع بدستور أو علاقة مجتمع مع مصدر ثقافي مهم فقط، أو أن هذه العلاقة تمثل علاقة محبة وتقديس فقط، بل إنها تمثل كل هذه الجوانب من العلاقة وجوانب أخرى غيرها.

---

(١) الدخان: ١٤.

فلـو كانـت تلـك علاقـة مجتمع أو فرد بدستور فقط لانتهت بمجـرد حفـظ هذا الدستور، أو بمجرد معرفة ما يتعلق بمسؤولية كل فـرد مـن المجـتمع ودوره ومسـؤولياته الملقـاة عـلى عاتقـه في هــذا الدسـتور، وذلـك لإحاطـة هـذا الدسـتور بـأمور أخرى غير تنظيم علاقـة الفرد الاجتماعية أو الشؤون العقائدية والعبادية والأخلاقية فقـط، ولاشـتمال هـذا الدسـتور عـلى أُمـور تنظـيم تتجاوز تنظيم العلاقة الفردية أو علاقة مجتمع بفرد أو الفرد بالمجتمع وعلاقة مجتمع بمجتمع آخر.

ولـو كانت العلاقة مع القرآن تمثل علاقة مجتمع بمصدر ثقافي فقـط لمـا اسـتمرت هـذه العلاقة قائمة إلى مثل هذا الزمن الطويل، وذلـك لارتباط الثقافة بالتحوّلات الاجتماعية والتبدّلات التي تحيط بالمجـتمع والـتحوّلات الكـبيرة مـن جـيل لآخـر، ولا تخفى هنا على المتتبع العلاقـة المـتلازمة بين مثل تلك التغيّرات والتحوّلات وبين الـتحوّلات والتـبدّلات الثقافـية الـتي تصـاحبها، ولـو كانـت هذه العلاقـة تمـثل علاقـة محـبة وتقديس لما وجدنا كل هذه الكتب التي كتـبها عـلماء المسـلمين حـول القـرآن الـتي تـتجاوز مفهـوم الحب والـتقديس، كالتفسير والدراسات والأبحاث بكافة اتجاهاتها وبكافة

لغاتها الحية!

و لما يمثله هذا الكتاب المعجز الكريم من مكانة في حياة المسلمين، ولعجز الإنسان أمام مكنونه العظيم[١] ومن جديده الذي

---

(١) جاء في دراسة منشورة بعنوان: ماهية العمل التفسيري، القسم الأول للشيخ محسن الآراكي مقاربة عن معنى الإعجاز القرآني كما يلي: «في الأساس الثاني: وضوح عنصر الإعجاز في العمل الإعجازي، بمعنى أنّ مجرّد التّلازم الواقعي بين الإعجاز والصّدق غير كاف في دلالة المعجز على صدق الرّسالة، بل لا بدّ من وضوح الملزوم أيضاً ليتسنّى لعامّة الناس أن يصدّقوا بالرّسالة من خلال اطّلاعهم على العمل الإعجازي. والقرآن إعجاز قولي وليس إعجازاً فعليّاً بحتاً، والإعجاز إنّما يُعرف فيما إذا كان العمل الإعجازي مسانخاً للأعمال البشريّة متفوّقاً عليها، وإلاّ فلو لم يكن هناك تسانخ بين العمل الإعجازي والأعمال البشريّة لم يُعرف عجز البشر بالنسبة إليه. وحينئذ فلا بدّ أن يكون الإعجاز القولي مسانخاً للأقوال المتداولة عند البشر حتّى تصحّ نسبة العجز عن هذا النّوع من الكلام إليهم؛ لانّه مسانخ لسائر كلامهم، ولكّنه فوق كلامهم وخارج عن حدود قدراتهم التعبيريّة والقوليّة. فالعجز البشري عن القيام بالعمل الإعجازي إنّما يصحّ تصوّره في الإعجاز القولي إن كان من سنخ سائر الممارسات

لا يبلى، لهذا ولذاك سوف يستمر المسلمون بالتأمل والتدبّر في معانيه الكريمة ومقاصده الشريفة.

ولسوف تبقى هذه العلاقة حية في وجدانهم ما دامت الرابطة مستمرة مع الله سبحانه وإن اختلف مستواها من فرد لآخر ومن مجتمع لغيره أيضا .

ومن هنا نستطيع أن نحدد مستوى ارتباط المسلمين بالله سبحانه بمستوى ارتباطهم بهذا القرآن الكريم .

⬅ القوليّة المألوفة بين الناس. فلو قام النبيّ بأعمال إعجازيّة كثيرة في خلوة عن الناس، أو أنّها كانت بمرأى منهم ومسمع لكنّها لغموضها وإبهامها لم تتّضح للناس جهة إعجازها وكونها خارجة عن حدود الطّاقة البشريّة. فكيف تتم دلالتها على صدق دعوى النبيّ ﷺ ما دام لم يتّضح للناس كونها أمراً معجزاً وخارجاً عن حدود الطّاقة البشريّة؟ وحينئذ، فبما أنّ القرآن من جنس الكلام، فلا بدّ أن يكون من جنس الكلام المتعارف والمألوف لدى الناس، ليتمكّنوا حينئذ من معرفة جهة إعجازه، وليتّضح لهم كونه خارجاً عن حدود الطّاقة البشريّة، إذ كيف يمكن لعامّة الناس معرفة جهة الإعجاز في الألفاظ الملغزة وغير المفهومة؟» انتهى.

وأما ما نعني بمستوى ارتباطهم هنا فهو مدى تطابق عمل الأفراد مع مفاهيم القرآن والتحرك الاجتماعي للعمل بموجب تعاليمه في جميع الاتجاهات التي يتعرض لها من خلال المفهم الصحيح لمراد القرآن، حيث أوضح ووجّه القرآنُ الناس إلى الجهة التي حددها هو ـ أي القرآن الكريم ـ لتوضيح وتبيين مقاصده بقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[١].

بهذا اتضحت الصورة لمجمل الآيات القرآنية وتبينت القاعدة الأساس والمرجعية المقبولة لفهم مقاصد الخطاب القرآني وليس من خلال فهم الذين ادّعوا هذا الفهم أو من وقع عليهم الاختيار من

---

(١) آل عمران: ٧.

قبل الناس(١).

ولأهمية علاقة الوحي الإلهي بالنسبة للمسلمين سوف تستمر جهودهم مبذولة للوصول إلى ما يتاح للعقل والفكر من

---

(١) من الأمور الغريبة والمستنكرة لدينا هو ادعاء عدم وجود مرجعية لتفسير القرآن غير السنة المنقولة عن النبي ﷺ أو فهم الصحابة للمقاصد الأساسية للقرآن والتي لها علاقة بالأحكام التشريعية والتنظيمية ، علماً أنه ثبت لدى الجميع أنه ليس كل ما نقل عن النبيّ ﷺ صحيحاً، بل مختلَف في صدوره عنه، كما أن فهم الصحابة أيضاً متعدد الاتجاهات ومختلف من موضوع إلى آخر، بمعنى أن الادعاء بمرجعية الروايات المختَلَف حول صدورها عن النبيّ ﷺ أو بمرجعية فهم الصحابة، وهو فهم مختلف تجاه الموضوع الواحد لا يتناسب مع تأكيد القرآن على عدم العمل بخلافه أو تأكيده بوضوح على الأخذ بإرشاداته في كل متعلق بالمسلمين، وكأن القرآن بهذا الادعاء يحيلنا إلى الكذّابين والوضّاعين – في حال عدم اكتشاف الدس منهم ـ، أو كما حدث في عمل الصحابة بأحكام مختلفة لموضوع واحد كالمتعة أو وراثة البنت أو سهم المؤلفة قلوبهم، أو يحيلنا إلى السيف والرمح كما حدث في قضية مقتل الخليفة عثمان عندما اختلف فهم الصحابة أنفسهم تجاه مثل تلك القضايا.!

هدي ورشد وفهم لا حدود له أبداً.

وعلى ذلك جاء التوجيه والإرشاد إلى أهمية هذا الفهم وأهمية الوصول له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[١].

واستناداً إلى ما تقدم تتضح ملامح مقاصد الخطاب القرآني بإيجاد عدّة مسالك واتجاهات تخدم الإنسان في وجوده المفتقر إليها بالضرورة ومنها:

١ـ تأكيد وجود اتجاهين أحدهما يمثل النور والحقيقة والسبيل المستقيم الصالح لمسيرة الناس لا يمكن الوصول له بغير اتّباع النهج القرآني وهو صراط العزيز الحميد، وآخر في حقيقته هو الظلمات وإن تعددت اتجاهاته وتنوعت مظاهره[٢] قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) نلفت النظر هنا إلى أن لفظ النور جاء مفرداً بعكس الظلمات التي جاءت بصيغة الجمع ، ولعل النكتة في ذلك هو عدم تعدد طرق الحق بعكس

الظلمات التي تتعدد طرقها، ومما يساعد في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣) وأود لفت النظر إلى غرابة ما تعرض له المفكر محمد أركون في كتاب (أين هو الفكر الإسلامي المعاصر)؟ صفحة ٣٣ بما أسماه ((منهجية التفكيك)) ويقصد به الخروج من النظام القطبي الثنائي الحدين كالصح والخطأ أو الخير والشر أو الروحي والمادي ، بقوله: ((وهي لم تعد مناسبة للعقل الحديث)) لأنها ((لا يمكن أن يوجدا أو يفهما إلا ضمن حالة تاريخية معينة))، وما نقوله في ذلك: انه لا يمكن الخروج من هذه الثنائية لأنها منهج عقلي ولا سبيل غيره للتعامل مع القضايا العقلية بغير ذلك، أما ما يتعلق بنسبية الأحكام في غيرها من القضايا واختلاف الحكم عليها بحكمين مختلفين عليها بحسب ظروفها الزمكانية، فواقع الحكم حينها لا يتعلق بالقضية مجردة من تلك الظروف وهذا ما يستدعي الاستغراب من مقولته: ((وهي لم تعد مناسبة للعقل الحديث)) أما الحكم على الموضوع فهو هو لا يتغير ولن يتغير فالخير هو الخير ولن يصبح شراً، والشر هو الشر ولن يصبح خيراً والعدل هو خير ولن يصبح شراً والظلم هو شر ولن يصبح خيراً في أي زمان ومكان ، كما أن أركون هو أركون تحت أي ظرف، نعم هناك قضايا وأحكام ، نستطيع

أَنْزَلْـنَاهُ إِلَـيْكَ لِـتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[١].

٢ـ هدايـة الناس وتأليفهم على الحقيقة وحفظ تجمعهم على الحق: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[٢].

٣ـ إنذار الناس وتحذيرهم من الغفلة أو نسيان الحياة الآخرة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[٣].

⮌

تطبيق «منهجية التفكيك» عليها ولكنها نسبية بحتة ، وما أورده كمثال الحكم على مياه نهر الغانج بالنسبة للمسلم أو للهندوسي فلا ينطبق على ذلك، حيث إن الحكم هنا علاقته بالاعتقاد وصحته من بطلانه، أما مياه النهر والحكم عليها مجردة من هذا الاعتقاد فحكم واحد كغيرها من مياه الأنهار، بهذا نقول إن الثنائية كمنهج عقلي لا يمكن الخروج عنها كواقع ولا نستطيع تجاوزه على الإطلاق.

(١) إبراهيم: ١.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) الأنعام: ١٩.

٤ـ تثبيت الناس على سلوك الاستقامة بتأكيد وحدة الرسالات والنبوات وأنها تصدّق بعضها بعضاً: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا القرآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1].

٥ـ التأكيد على أن الاستقامة الحقة باتّباع القرآن والعمل بمضمونه: ﴿إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

٦ـ التأكيد على عدم إغفال الجانب الروحي والمعنوي في التعامل مع احتياج الإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[3].

٧ـ التأكيد على الاستفادة من الحقائق الكونية والحقائق التاريخية والتي ساقها كأمثلة حسية: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا

---

(١) يونس: ٣٧.

(٢) الإسراء: ٩.

(٣) لقمان: ٢٠.

القرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (١).

٨ ـ التأكيد على استمرارية محاسبة النفس ومراجعة كل ما يصدر عن أفعال الإنسان ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٢).

ونستطيع أن نحصر تلك المقاصد بعلاقة الإنسان في ثلاثة مسارات لا تخرج منها، بل تتفرع منها كل علاقاته المتعددة الاتجاهات، وهذه المسارات هي:

* علاقة الإنسان بخالقه
* علاقة الإنسان بنفسه
* علاقة الإنسان بغيره

وتترابط هذه المسارات مع بعضها ترابطاً موضوعياً في تحديد سلوك الإنسان وتصرفاته.

إن ما يؤكده التاريخ البشري الطويل هو أن الإنسان بما يصيبه

---

(١) الروم: ٥٨.

(٢) القمر: ١٧.

من تحولات نفسية وجسدية أنه في حاجة ملحّة ودائمة إلى ما يدفعه إلى موضع متقدم أو إبقائه في مركز الخير والصلاح، ثم إن هناك التأثير الجمعي على الفرد أو العكس وأن لمثل هذه التحولات والتأثرات دوراً سلبياً في الوصول إليها بمفرده أو بواسطة تجمعه التاريخي ذلك، ولعل التاريخ المعاصر يؤكد لنا هذه الحقيقة مع وصول المجتمع الإنساني إلى ما هو عليه من تطور سياسي واجتماعي، ومع كل ذلك نرى أفراد هذا التجمع ـ في الأعم الأغلب ـ لا يرون في تلك النظم والقوانين ـ التي تأسس عليها تجمعهم ذلك ـ سبيلاً لتحقيق مطلبهم من السعادة والازدهار المرجو بما يتناسب مع مستوياتهم الصناعية أو العلمية على كافة الصُعد والاتجاهات، ومما يؤكد ذلك أيضاً هو وجود وتنوع المدارس الأخلاقية وتعدد مذاهبها التي تشكلت وتأسست بناء على تراتبية الترابط الموضوعي في تلك المسارات الثلاثة المذكورة سابقاً.

ولهذا أكدّ الخطاب القرآني لنا عجز تلك المدارس والمذاهب وتلك القوانين والنظم المتعددة للأخذ بتفكير الإنسان والسلوك به إلى مقامه الذي تستحقه إنسانيته والتي لا يمكنه تحقيقها بدون النهج القرآني.

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وقد تعددت المذاهب الفكرية ـ الإنسانية النزعة[٢]ـ عبر التاريخ وتزاحمت في مطاوي ساحات الجدال، ومع كل ذلك لم تكن هذه التجارب المتخمة لتحظى وتكتسب ثقة الإنسان كسبيل صالح غير قابل للتحديث والتطوير أو التغيير لكي يتناسب مع متغيرات عصره أو التحولات التي لها علاقة مباشرة بتجمعه المتعدد النزعات[٣]!

---

(١) آل عمران: ١٠٥.

(٢) ما نعني بالنزعة الإنسانية هو مصدرية الإنسان لهذه المذاهب وعدم استنادها إلى غير الإنسان في وجودها.

(٣) جاء في الموسوعة الفلسفية العربية ما يلي: «ولذا أجمع الباحثون الجادون على أن الإنسان وحده حيوان خلوق، وأنه هو الحيوان الخلوق، يحب الخير ويكره الشر ويحترم الفضيلة ويمج الرذيلة، وأن أرجح الناس عقلاً وأعظمهم حكمة وأكثرهم أصالة، هم الذين يتحرون قيمة إيمانهم الأخلاقي ويزنون مبدأ احترامهم ويرغبون في المثل الأخلاقي الأعلى

وأمـا تأكـيد الخطاب القرآني على حاجة الإنسان لمعرفة هذه الحقائق والحالات التي يتعرض لها فهي ناتجة عن أن هذه الحالات هي أمـور غـير قابلـة للتـنحي عن سبيل الإنسان ما دام في معترك الحياة ومتعدد العلاقات ومواجهاً لتزيين الشيطان لـه مسارب الشر، إذ إن صـراع الإرادات في الإنسان مستمر والمواجهة مع الهوى قائمة، كما أن هـذه الحالات أيضا مصاحبة للإنسان ما دام يمتلك حرية الاختيار المتعلقة بالثواب والعقاب قال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[1].

تشـكّل المعـرفة التاريخية للفترة الزمنية التي أنزل فيها القرآن الكـريم عـلى الـنبيّ محمـد ﷺ مـن أهـم أدوات فهـم الخطـاب القـرآني، ولا نعـني هـنا الفهـم التفسيري أو التفصيلي لـه بقدر ما

⬅

ويـبرأون من زخارف المنكر ومزالق الرذيلة، ويرفضون حرية مريحة للإفلات مـن قـيود الواجب وليحيا المرء حياة فردية جامحة لا يعوقه رادع ولا تلجمه فضيلة ولا يقهره إلزام، الموسوعة الفلسفية العربية ١: ٣٥ (عادل العوا).

(١) الإنسان: ٣.

نعني الفهم الإجمالي على الأقل .

بعد هذا نثير التساؤلات الآتية، ولا بد أن يستثير العقل سؤال مهم جداً ألا وهو: هل أن هناك مفاتِحَ لفهم القرآن لا يجوز تجاوزها؟ وهل أن هذه القواعد ملزمة لمن أراد معرفته ؟

ولإدراك أهمية الإجابة على مثل هذا الاستفهام والتساؤل يجب الإحاطة بما يعنيه لنا هذا الدستور والنظام بما يحمله من دقة متناهية تتفق ومقاصده العظيمة، ونستظهر من ذلك أموراً ملزمة لفهم الخطاب القرآني منها ما يلي:

١ ـ اتفاق العقلاء بأن هناك مطالب ومقاصد في سياق الخطاب القرآني ومعنى يراد من ورائه إما ظاهراً أو باطناً، ولتحقيق هذا المراد يجب فهم الكلام فهماً صحيحاً ليعرف منه ذلك المراد .

٢ ـ إن العمل بخلاف المراد بعد فهمه مستوجباً للذم حسب سياقه الواضح .

٣ ـ عدم فهم المراد منه لا يسقط استمرارية توجهه ولا يفرغه من مراده.

٤ ـ لفهم أي معنى مراد منه يجب تطبيق القواعد اللغوية المبني عليها صدوره.

٥ ـ يجب التناسب بين المراد وبين القدرة على تحققه في الواقع.

٦ ـ عدم التعارض بين مرادين لموضوع واحد بنفس الظرف ذلك.

لقد سجل تاريخ المسلمين الثقافي السابق نبوغهم في إدراكهم لأهمية الحدث التاريخي وتدوينه بما دونته أقلامهم من تصوير لتلك الفترة مع ملاحظة عدم تدوين ذلك حتى أواخر القرن الثاني الهجري[١] لأسباب تناولها الكثير من الباحثين والعلماء[٢].

---

(١) اعتبر الكثير من العلماء والباحثين عدم تدوين الأحداث التاريخية التي صاحبت نشأة الدولة الإسلامية حتى ذلك الحين خسارة ثقافية كبرى باعتبار أن عدم المعاصرة الزمنية ـ أكثر من قرن ونصف ـ تجعل كتابة الحدث وتدوينه مجال تشكيك وعدم توثيق، مما وجه الكثير من طاقتهم وجهدهم في التحقيق والتوثيق، ومما وجه كثيراً من الدراسات في إثبات أو نفي هذا الحدث أو ذاك.

(٢) قد يكون موضوع الاختلاف حول خلافة الرسول ﷺ والاختلافات التي حدثت خلالها من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم تدوين الحدث التاريخي

وأول مـا يبدو لنا من ذلك هو تقسيم تلك الفترة إلى ما قبل الهجرة إلى المدينة المنورة وهي الفترة المكية للدعوة، والأخرى ما بعد الهجرة، وتختلف هاتان المرحلتان بتحول المسلمين إلى مجتمع متكامل بعـد أن كـانوا في مكـة المكـرمة جزءاً من مجتمع تدير شؤونه أنظمة وقوانـين لا تـتفق مع مبادئ المسلمين في ذلك المجتمع ولا سلطة لهم على تغيير هذه القوانين والأعراف المتفق عليها هناك.

وأمـا ما بعد الهجرة فقد تأسست دولة الرسالة ـ لم تصل إلى الـنموذج الكـامل لكونهـا في مـراحل نشـأتها الأولى ـ الـتي رسمها القـرآن وحدد معالمها، وبهذا التحول التاريخي العظيم لا بد من أن نجد تغييراً يتناسب مع تلك الظروف المستجدة .

ولاخـتلاف ظـروف هاتين المرحلتين عن بعضهما نجد أهـمية الإحاطة بهاتين المرحلتين .

لعـل التميـيز الواضح في القرآن الكريم لهاتين المرحلتين من

إن لم تكن أهمها، وإحاطة تلك الأحداث بسياج يصعب اختراقه.

الأهمـية ما يدعو لهذا التأكيد بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِـنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

---

(١) الحديد: ١٠.

علاقة المسلمين بالقرآن

تتخذ العلاقة بين المسلمين والقرآن أكثر من مسار وتشكل هذه المسارات بمجموعها طبيعة هذه العلاقة وهي متعددة المفاصل بالنظر إلى القواعد التي تأسست عليها هذه العلاقة، كما أن مثل هذا النوع من الارتباط ليس موحداً حيث إن المجتمع في واقعه إنما هو مفهوم اعتباري لا يوجد بدون وجود أفراده الذين يمثلون هيئته الخارجية، ولكون هذا المجتمع الذي نعنيه متعدد الجهات في الخارج فلا نستطيع أن نعطي التساوي بين أطرافه أو أفراده وبين القرآن في مثل هذه العلاقة، على ذلك يتأكد اختلاف شعور الأفراد باختلاف مستوياتهم الثقافية والفكرية تجاه كتاب ما أيّاً كان محتواه ومضمونه، أما هذا الشعور الموحد للمسلمين تجاه القرآن الكريم فلا اختلاف بأنه لا نظير له أبداً تجاه أي كتاب آخر حتى عند غير المسلمين بالنسبة للكتب السماوية الأخرى، وهناك عوامل عدة شيدت جسور هذه العلاقة الوثيقة عند المسلمين وبهذا التقديس.

أولاً ـ الجانب الغيبي:

وهو العناية السماوية بهذا الكتاب المقدس حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١].

لقد كان تاريخ الكتب عبر التاريخ القديم والحديث مليئاً بالأدلة والبراهين على اهتمام الإنسان بمحتويات الكتب والبيانات العلمية بجميع أقسامها المتعددة ومنها الكتب المقدسة لكافة الديانات السماوية كالمسيحية واليهودية وهما الديانتان الباقيتان حتى الآن غير الإسلام ولهما أتباع يتعبدون الله بهما[٢].

فخلال ١٤٣٥ عاماً أي منذ نزوله وحياً على النبي محمد ﷺ لم نجد هناك كتاباً غير القرآن الكريم أحيط بعناية خاصة بحيث لم يتغير فيه حتى حرف واحد بل وحتى تنجيم آياته!

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) يجب التفريق بين تصحيح التعبّد بهاتين الديانتين بعد ظهور الإسلام كتشريع وبين صدور التشريع الصحيح وغير المحرّف لهاتين الديانتين من الله سبحانه وتعالى.

ونشير هنا إلى خصوصية بهذا الشأن ألا وهي: أنه مرت خلافات بين كثير من المسلمين حول القرآن من قبيل الخلاف في التفسير والتأويل - وهي مستمرة حتى الآن مع بالغ الأسف - ومن قبيل خلق القرآن أو قِدمه حتى بلغ الخلاف حدّ القتل، ومع هذا وذاك لم نجد هناك أي اختلاف، على أن هذا القرآن المقدس لم يصبه ما أصاب غيره من تغيير أو تحريف، بل إن التسليم بكل ما فيه من أنه هو ما أنزل على النبي محمد ﷺ بلا زيادة أو نقصان(١).

من هنا يتضح بجلاء لا غبار عليه أن العناية السماوية لم تغب عن هذا الجانب بالحفاظ عليه مما جعل المسلمين في انشداد مستمر إلى معينه وأنواره المضيئة في الاتجاهات كافة التي يسير بها الإنسان ويخوض غمار حياته مستهدياً بها.

---

(١) لعدم الاعتناء بالروايات الضعيفة جداً والموجودة في كتب المسلمين من نقيصة أو زيادة في آيات القرآن ، لم يتم الأخذ بها أو تداولها وكتابتها في النسخ المتداولة بين المسلمين ، وللمزيد حول تفنيد هذه الروايات يراجع مقدمة تفسير البيان للسيد الخوئي ﷺ.

ثانيا ـ المضمون:

إنّ من أهم عوامل الارتباط بين المسلمين والقرآن هو حيوية المضمون القرآني بالنسبة للإنسان لما يقدمه له من تفسير شامل لكافة الظواهر المرتبطة بالإنسان أو المحيطة به وأهم هذه الظواهر هي وجود الإنسان نفسه.

عندما يحمل الإنسان كل ما يختمر في خياله وذهنه من تساؤلات وأهمها معرفة ذاته التي بواسطتها سيتعرف على كل ما حوله.

فعندما يحتمل مثل هذه التساؤلات ثم لا يجد جواباً لها سوف يتحول الإنسان إلى طاقة غير موجهة توجيهاً سليماً مع ملاحظة ما يمتلكه من طاقات هائلة وجبارة فما هو مصير هذه الطاقة عندما تتفرع في الساحة الإنسانية وهي لا تملك هذه المعرفة الذاتية أولاً، ولا تمتلك تفسيراً لما يحيطها من وجودات متفاوتة التأثير؟

وكيف يقوم الإنسان بتأدية دوره التام والكامل في الحياة ما لم يحط بأجوبة هذه التساؤلات الملحّة ؟

إن ما يقدمه القرآن من تفسير شامل لكل تلك الأسئلة

للفكر الإنساني وعلى كافة المستويات العقلية وبأجوبة تامة لكل تلك المستويات ـ وإن لم يدركوا تمامها ـ هو من أهم أسرار هذا الارتباط، ولو أجملنا القول هنا لقلنا: إن الحقيقة والحقيقة المجردة هي ما يقدمها القرآن الكريم، ولكنه يقدمها بصورة إعجازية أيضاً، ولكافة المستويات.

فمن جهة نجد اشتراك المستويات المختلفة حول المفاهيم المنتزعة منه مما جعل هذا التحليق المشدود إلى حقيقته المتجددة بالجانب الروحي ـ وهذا مستوى آخر غير المستوى العقلي ـ كالمفاهيم الأخلاقية.

ومن جهة أخرى يقدم القرآن كل تلك التفسيرات بدون أي وساطة بينه وبين متلقيه لما لا تقليد فيه[1]، مع عدم إلغاء دور النبوة

---

(١) ما أجمع عليه علماء الإمامية (هناك أقوال شذت بجواز ذلك وهي نادرة جداً) هو أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين وهي «التوحيد، العدل، المعاد، النبوة، الإمامة» وهناك أقوال لبعض العلماء منهم تعتبر أن النبوة متفرعة من المعاد وأن الإمامة متفرعة من النبوة، وعلى هذا لا تعتبر النبوة والإمامة

والإمامة في هذا الشأن طبعاً، ولكون دور هذه القيادة يأتي في مرحلة لاحقة بعد التصديق بالرسالة القرآنية.

وكما يجد الإنسان العارف والعالم حاجته الروحية والعقلية ويلامسها، كذلك يجد الإنسان الأقل معرفة حاجته الروحية ويلامسها فيه أيضاً.

لقد تبينت هذه الحقيقة في كتب الأدب والتراث بتداخل الأمثلة القرآنية في النثر والشعر والأمثال على كافة المستويات العلمية والاجتماعية حتى أصبح هناك ما يعرف بالأدب الإسلامي .

ومما لا شك فيه أن الخطاب القرآني أو اللغة القرآنية بمرونتها وبما تمتلكه من حيوية في وجدان عامة الناس هو ما جعل فكر هؤلاء يتجه نحو الاستفادة من لغته وخطابه واستثمار تأثيرها لهذا الأدب في ساحتهم.

وقد ذكر المفكر محمد أركون ما يلي:

من الأصول، والله أعلم.

((ومـن وجهة نظر تاريخ الفكر فإن خطاب الوحي كان يطرح أفكـاراً ومفاهـيم ورؤىً ثوريـة للعـالم بالقياس إلى الرؤى والأنظمة الشـرعية أو القـيم السـابقة أو المعاصرة . ذلك أن الوحي هو كلام مـتجه نحو الفعل والممارسة. إنه يؤثر على تاريخ البشر بشكل دائم وفعـال لأنـه يقدم حلولاً عملية للحالات القصوى للوضع البشري. نقصـد بالحـالات القصـوى هـنا: الحـياة، المـوت، العدالـة، الحـب السـيادة (أو الهيبة) الشرعية، السلطة الظالمة، العلاقات الاجتماعية التعالي، الخ.

إن القـرآن يلـبي كـل هذه الحاجيات ويملأ كل هذه الوظائف على أفضل وجه.)) [1] انتهى.

ويسـتمر هذا التجلي الإلهي لعاشقيه خلال آياته البينات قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

لقد كان الخطاب القرآني مباشراً لكافة العقول على اختلاف

---

(١) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ محمد أركون: ٩٢.

(٢) آل عمران: ١٣٨.

مستوياتها وتعامل مع هذه المستويات تعاملاً مباشراً، وقد استشعر المخاطبون فيه ذلك، على ما يمثله من عمق وبعد علمي ومعرفي، إلاّ أن الجانب الروحي في آياته كان كفيلاً بأن يجعل المتلقي قريباً من فهم مطالبه وإدراكها[١]، وهذا ما جعل الفاحص المنصف لا يجد حاجة أو ضرورة لوجود وسيط لكي يوثّق الرابطة بينهما[٢].

كتب الأستاذ فريد الأنصاري مصوراً علاقة المتلقي بالقرآن بما يلي:

((فإن نزول هذه المفاهيم على قلبه، باعتبارها لبنات في تكوين شخصيته الإسلامية، يكون عميقاً بحيث يصعب امحاؤه

---

(١) يقول الشهيد مطهري في كتابه التعرف على القرآن ص ٧٧ ما يلي: ((إنه ليس كتابا علمياً وتحليلياً محضاً، بل، إنه في الوقت الذي يستخدم الاستدلال المنطقي، يتحدث مع إحساس الإنسان وذوقه ولطائف روحه ويؤثر عليه)).

(٢) لا نتحدث هنا عما يتعلق بالتكليف والواجبات الشرعية أو الأسرار الكونية أو المعارف الغيبية بقدر ما نتحدث عن الحاجة الفطرية لهذه العلاقة التي لا تتم بدون هذه المعرفة ولو كانت جزئية .

واندثـاره مع الزمن، ذلك أن القرآن من حيث هو معان ومن حيث هـو عـبارات معـاً، قـوة تأثيريـة لا يمكـن أن توجـد في كتب الناس وأفكـارهم وتذوقـاتهم ومواعظهم، فهو وحده المتعبد بتلاوته حرفاً حرفاً))[1].

وتأكـيداً لعـدم الحاجـة لوجود الوسيط بين الخطاب القرآني ومتلقيه، قال تعالى:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[2].

ومـن هـذا المـنطلق كانت كافة المستويات مدعوة لهذا التدبّر لتعود بما قدمه القرآن للمتلقي بقولـه تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ عَلَـى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[3]، وخير ما أختم به هذا الجزء هو ما ذكره الشـيخ الكواكـبي بوصـفه الفهم الفطري لحقيقة الإسلام من خلال الفهم الفطري للقرآن بقوله:

---

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، فريد الأنصاري، كتاب الأمة، ج١.

(٢) الرعد: ١٧.

(٣) محمد: ٢٤.

((أما الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام الموصوف بدين الفطرة ولا أعني ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنما أريد بالإسلام : دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيّد الفكر بتفصّح زيد أو تحكّم عمرو))(١).

ثالثا ـ شخصية النبيّ محمّد ﷺ :

لخاتمية الرسالة المحمدية لكافة الشرائع السماوية مهمة تختلف عن كافة المهمات التي أوكلت للأنبياء السابقين في جانب، وهذا الاختلاف يتمثل بخاتميتها للشرائع السماوية كافة وأنها الجسر الوحيد المقبول لإبقاء العلاقة السليمة بين الله سبحانه والإنسان وتختلف عن الرسالات السابقة أيضاً بأنها تمثل كمال النضج البشري الذي استوجب عدم إرسال أنبياء آخرين بعد أشرفهم ﷺ.

فقد تميزت تلك الشخصية الكريمة بصفات وخصائص

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الشيخ عبدالرحمن الكواكبي: ٩٨.

لا يمكن تجاوزها من الناحية الكمالية مما جعلها عامل جذب أسهم في التعلق بالقرآن لما تَمثّل للناس من حقائق جسدتها تلك الشخصية العظيمة بأفعالها وتوجيهاتها وبما انعكس مما حققتها على أرض الواقع.

حتى قال تعالى في وصفه لتلك الشخصية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

لقد تبين من خلال التاريخ المكتوب والمشهود البون الشاسع بين ما كان عليه واقع الجزيرة العربية قبل الدعوة وما بعدها.

إنّ الدور القَبَلي السائد في تلك الفترة كان دوراً بارزاً بل هو المؤثر الوحيد في تنظيم العلاقة الاجتماعية والثقافية والسياسية بين الناس وفي العلاقة الاقتصادية[2] بنحو أقل، ولا يخفى أن النظام

---

(١) القلم: ٤.

(٢) إن ما يمثله الشعر بمفهومه والشعراء بمكانتهم في الأدب الجاهلي لخير دليل على عدم استقلالية الفرد الفكرية وارتباطه بالضرورة بقبيلته، فتحركه من خلال رؤية القبيلة وعدم تجاوز هذا المحيط، ولعل إطلاق كلمة

القـبلي في واقعه يعتمد على أفراد القبيلة ذاتها ولا يعتمد نظاماً أو قوانين تدير شؤونه.

فقـرار القبـيلة بيد كبيرها وإن كان هناك تأثيرٌ بسيطٌ من قبل بقـية رجالهـا، وهـذا لا يـنفي الدور الأكبر لكبيرها وشيخها بتعبير آخر.

فعـندما نتصـور هذه التركيبة في اتخاذ القرار أو إدارة المجتمع ذلـك ـ تحـت هذه النظم الممتدة في تاريخ هذا المجتمع ـ نستطيع أن نلاحـظ التحوّل الكبير الذي أوجدته شخصية النبيّ محمّد ﷺ في أفـراد ذلـك المجـتمع في مـدى عقديـن من الزمن؛ وهي فترة وجيزة وقصيرة جداً بمنظار التحولات الاجتماعية عبر التاريخ(١).

صعاليك وبما لهذا المفهوم من مدلولات تاريخية وفكرية توضح لنا أن الخروج على النظام القبلي هو شذوذ وحالة منبوذة تخالف الاستقامة في أعرافهم.

(١) قـد تكـون شـهادة مـن هـم من غير المسلمين اكثر تدليلا لتلك التحولات الإيجابـية الـتي حدثـت في الجزيـرة العربـية والعـالم ولـلمزيد حـول تلـك الشـهادات يـرجى الاطـلاع عـلى كتاب «محمد عند علماء الغرب» لمؤلفه

ومن المؤكد أنّ لا أحد يستطيع الفصل بين شخصية النبيّ ﷺ وبين الرسالة التي بُعث بها من جهة التأثير، غير أن الجهد الذي قدّمه في سبيل إنجاح الدعوة وتحمّله كافة المشاق في سبيل ذلك وعلى أتم وجه قد أثبت المكانة التي نتحدّث عنها حتى أكّدها الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لِتَشْقَى﴾[1].

ومع عدم الفصل بين شخصية الرسول ﷺ ومقاصد الرسالة نستنتج أيضاً الوحدة الموضوعية بين أفعاله وأقواله وتقريره من جهة ومراد الخطاب القرآني بالتأسي بخلقه من جهة أخرى .

فبمعرفة الغاية من اتّباع القرآن وإرشاداته وهي: ﴿إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الشيخ خليل ياسين .

(١) طـه: ١ ـ٢.

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[١].

أقـول: بمعـرفة هـذه الغايـة من هذا الاتّباع تبدو هذه الغاية أيضـاً متاحةً أيضاً من خلال التأسّي بهذه الشخصية العظيمة حيث قـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

قال العلاّمة الطباطبائي ﷺ في ذلك ما يلي:

((فالمـراد ـ والله أعـلم ـ إن كنـتم تـريدون أن تخلصوا لله في عبوديـتكم بالبـناء عـلى الحب حقيقة فاتّبعوا هذه الشريعة التي هي مبنـية عـلى الحـب الـذي يمثله الإخلاص والإسلام وهو صراط الله المسـتقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى، فإن اتبعتموني في سبيلي

(١) الإسراء: ٩.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) آل عمران: ٣١.

وشأنه هذا الشأن أحبكم الله وهو أعظم البشارة للمحب، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يبتغيه محب بحبه، هذا هو الذي تقتضيه الآية الكريمة بإطلاقها))(١).

وليتضح الفارق بين التأسي والاتّباع ذكر العلاّمة عن المعنى الأول ما يلي:

((و قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ بدل من ضمير الخطاب في ﴿لكم﴾ للدلالة على أن التأسّي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تَسمّى بالإيمان، وإنما يتصف بها جمع ممن تلبّس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فآمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحاً ومع ذلك ذكر الله كثيراً فكان لا يغفل عن ربّه فتأسّى بالنبيّ في أفعاله وأعماله))(٢).

نختتم حديثنا عن هذه العوامل الثلاثة التي شيدت هذه

---

(١) تفسير الميزان ، العلامة محمد حسين الطباطبائي ٣: ١٠٤.

(٢) المصدر السابق ١٦: ١٨٦.

العلاقة بين المسلمين بما يمثلونه كأفراد أو كمجتمع أو كدولة لننتقل بالحديث عن هذه العلاقة في الجانب التاريخي للمسلمين .

الآثار التاريخية لعلاقة المسلمين بالقرآن

نستطيع أن نتناول مثل هذه العلاقة من ناحيتين لهما آثار واضحة في ساحة المسلمين التاريخية، هما الجانب الثقافي والاجتماعي .

أوّلاً ـ الجانب الثقافي:

لا يلاحظ المتتبع لدراسة ثقافة المجتمع بالجزيرة العربية أو في المجتمع الوثني عموماً بتلك المنطقة بروزاً لجانب ثقافي معيّن غير الثقافة الشعرية أو البلاغية وهو المكوّن الثقافي الوحيد المشهود في البنية الفكرية لذلك المجتمع، وهذا مع وجود مميز وملحوظ لأهم ديانتين سماويتين في حينه، هما الديانة اليهودية وتتمركز في يثرب وبعض المناطق في شمالها، والديانة المسيحية وتتمركز في نجران وبعض المناطق المحيطة بها، مع ما كانت تمثله رحلة الشتاء والصيف المتتابعة بالمرور على هذه المناطق، كما لا يمكن تجاهل الجوار الفارسي للجهة الشرقية من الجزيرة بما تمثله الثقافة الفارسية في ذلك الزمن.

ولا نستطيع الفصل بين علاقة المسلمين بالقرآن وعلاقتهم بالإسلام من جهة أخرى لما تمثله وحدة هذه العلاقة في الجانب الفكري والسلوكي ووحدة هذه الجهة المنفعلة أي الإنسان المتلقي.

ثم جاء التحول الأعظم في تلك البنية الفكرية التي أصبحت من المفاصل المهمة والواضحة في التاريخ البشري بتكوينها لاستقلالية فكرية مميزة جداً وبوضوح تام، وهذا ما توضحه كافة الدراسات التي تناولت المسار الثقافي الإنساني بصورة عامة .

ولعل الانفصال السريع الذي حدث للمسلمين عن ثقافة المجتمع الجاهلي ـ وهي ثقافتهم السابقة ـ هو أصدق تعبير عن هذا التغيّر الحادث حتى قبل ـ الهجرة ـ وجود الدولة الإسلامية مما يعني أن هذه الثقافة تشكلت وتقومت بسريان هذا الخطاب القرآني في وجدان المسلمين وتبلوره في حركتهم الاجتماعية وتجمعهم السكاني.

بهذا نقول: إنّ المسلمين أصبحوا يحملون صفة ثقافية مميزة لهم من الناحية التاريخية .

ومن المهم التأكيد على أن هذه الثقافة لم تكن ذات بعد عرقي أو طائفي أو أي بعد غير إنساني أبداً، بل إنّ انصهار كل

الاختلافات التكوينية لأفراد ذلك التجمع هو من الأمور الملفتة للنظر.

ومع مرور الزمن تبدأ الحركة الثقافية بالظهور المتسارع في ساحة المجتمع الإسلامي، وأصبحت في سنوات مخاضها منهمكة بتحويل ذلك الخطاب القرآني إلى واقع متجسّد على الأرض، وفي الحقيقة لم يكن ذلك المخاض غير التحضير لأجيال قادمة سوف تتسنم الهرم المعرفي بالمزاوجة الشرعية والعقلية بين الثقافات المحيطة بالمجتمع المسلم وبين الثقافة الإسلامية الحديثة العهد وبالتعامل مع المعرفة بغض النظر عن مصدرها المخالف وما لم تختلف مع الثقافة القرآنية[1].

---

(١) ذكر الشهيد مطهري في كتابه الإسلام وإيران: ٣٦٢ عن الفيلسوف الكندي ما يلي: ((كان في المسألة التي يتعارض فيها رأي الفلسفة ـ آنذاك ـ مع الإسلام يأخذ جانب الإسلام ، كما يظهر ذلك من رأيه الخاص بشأن مسألة الحدوث الزمني للعالم ، ومسألة حشر الأجساد يوم المعاد. وكان يسعى جاهداً للجمع والتوفيق بين الأصول الفلسفية والمعارف الإسلامية ، بل بدأ هذا بالكندي واستمر حتى اليوم)).

ولسنا ندّعي هنا أن الخطاب القرآني هو خطاب ثقافي بقدر ما كان هذا الخطاب يحمل في جوانبه الروح الدافعة إلى أهمية المعرفة في تفاعل الإنسان مع وجوده المنتج أو حياته الفاعلة والإيجابية وربط هذه المعرفة بالمكانة الرفيعة في وجوده في الحياة الآخرة قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**(١) عبر ما تنضح به كتب التاريخ الباحثة والفاحصة للتكوين الثقافي للمسلمين بعد الإسلام نرى ما تحمله الثقافة الجديدة بمفاصلها المتميزة عن كل ثقافة أخرى، ونستطيع أن نقرأ مثل ذلك من خلال استناد الثقافات الأخرى على التراكم التاريخي لكل ثقافة على حدة وانفصالها عن الثقافات الأخرى مثل اتصال الثقافة الفارسية ببعدها الفارسي فقط، وكذلك الثقافة الرومانية، وغيرهما من الثقافات الحية في ذلك الحين، غير أن الثقافة الإسلامية أسست القواعد الأساسية باستقلالية عن البعد التاريخي للثقافة الجاهلية-ما قبل

---

(١) الجمعة: ٢.

الدعوة- وهي بنفس الوقت اتصلت بالثقافات الأخرى المذكورة مع احتفاظها بخصائصها الذاتية المستمدة من الثقافة القرآنية.

ثانيا ـ الجانب الاجتماعي :

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1].

قال السيد الخوئي ﷺ مصوراً الحالة الاجتماعية لما كان عليه الحال قبل الإسلام ما يلي:

((يبدو لكل متتبع للتاريخ ما كانت عليه الأمم قبل الإسلام من الجهل، وما وصلت إليه من الانحطاط في معارفهم وأخلاقهم . فكانت الهمجية سائدة عليهم، والغارات متواصلة فيما بينهم، والقلوب متجهة إلى النهب والغنيمة، والخطى مسرعة إلى إصلاء نيران الحروب والمعارك، وكان للعرب القسم الوافر من خرافات العقيدة، ووحشية السلوك، فلا دين يجمعهم، ولا نظام يربطهم وعادات الآباء تذهب بهم يميناً وشمالاً، وكان الوثنيون في بلاد

(١) التكوير: ٨ ـ ٩.

العرب هم السواد الأعظم فكانت لهم ـ باختلاف قبائلهم وأُسرهم ـ آلهة يعبدونها ويتخذونها شفعاء إلى الله))[١].

هذه خلاصة واضحة عما يشكله ذلك التجمع بعاداته وسلوكه الاجتماعي!

ثم ماذا حدث؟

خلال عقدين فقط تحول هذا المجتمع إلى قمة المثالية الاجتماعية من خلال وجود دولة متحضرة بقوانينها السائدة، ومجتمع واحد بعد أن كان أفراده يعادي بعضهم البعض أو أن بعضهم عبيدٌ للبعض الآخر، ومع اختلاف وتعدد طوائفه المتباعدة فقد ذابت كل تلك الفوارق المتحكمة والحاكمة عليهم، قال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

(١) البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي: ٥٩.

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

ثم تحول ذلك المجتمع خلال فترة قصيرة جداً إلى دولة مركزية تنتقل منها التأثيرات وتنعكس إليها التطورات مع الاحتفاظ بشخصية مجتمع تلك الدولة المركزية-الإسلامية- وتراجع المؤثرات المنتقلة إليها من مجتمعات تلك الحضارتين العريقتين المجاورتين لها بما يمثلانه من عمق وحضور على كافة المستويات.

فكيف تم هذا التحول خلال هذه المدة القصيرة ؟

لما تمثله الأسرة في نسيج أي مجتمع فقد أعاد الخطاب القرآني نسيج الأسرة نسيجاً غير ما كان عليه في السابق .

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلاّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[٢].

بمثل هذه القداسة تم البدء في نسج ذلك المكون الاجتماعي

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الإسراء: ٢٣.

الجديد والنواة السليمة في هرميّة المجتمع الصالح بالخطاب القرآني.

ثـم تجـاوز الأسـرة لإكمـال هـذا النسيج بإزالة كل الفوارق الاجتماعـية بين أفراد ذلك المجتمع، فلا فضل لعرق على عرق آخر ولا فضـل لحـر عـلى عبد، ولا فضل لعرب على أعاجم، ولا فضل لـرجل عـلى امرأة، ولا فضل لأغنياء على فقراء . بمثل هذا الإعداد النفسـي والاسـتعداد اللائـق والمسـتحق للإنسـان تم هـذا التحول السـريع والفـاعل في تاريخ البشرية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١].

وقد تحوّلت تلك المفاهيم القرآنية إلى واقع متحقّق من خلال ممارسـة وتطبـيق هـذه المفاهيم خلال الممارسة العملية لشؤون الحياة مـثل زواج بعـض من كانوا عبيداً بنساء من المسلمين لم يكنّ إماءاً، وكذلـك تقاسم الثروات بين المهاجرين والأنصار، وكذلك المؤآخاة التي حدثت بين أفرادهم.

---

(١) الحجرات: ١٣.

ومن ذلك أيضاً بروز شخصيات مؤثرة وفاعلة في الحياة العامة من الصحابة لا وجود لأيّ امتداد لتاريخهم القبلي كسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وغيرهم الكثير.

ومن ذلك بروز دور المرأة وبروز أسماء صحابيات جسّدن بواقع عملهن صورة المرأة في القرآن وتفوقن على كثير من الصحابة، فهذه الزهراء الطاهرة البتول، وأم المؤمنين خديجة التي بفقدها وفقد عمه أبي طالب أطلق الرسول ﷺ لذلك عام الحزن، وغيرهن من النساء اللاتي ساهمن بجهدهن بتحقيق هذا التحول التاريخي العظيم.

فما حصل من تبدّلات وتحوّلات ثقافية أمرٌ مشهود، أي أن الأولويات في تفكير أفراد ذلك المجتمع طرأ عليها من التغيرات ما جعل المؤرخين والنقاد ينكبون لدراسة تلك التبدّلات من الجوانب الثقافية والتي لا علاقة مباشرة لها بالدين والمعتقد.

الإنسان والقابلية

تعتبر المسيرة الإنسانية ـ حتى عصرنا الحاضر ـ دلالة صادقة على إمكانية العقل البشري التي أهّلته لخلافة الله سبحانه وتعالى في الأرض، وهذا ما يؤكد أيضاً قابلية الإنسان النفسية والذاتية للتطوير والاستفادة مما أودعه الله سبحانه في هذا الكون والوجود، وكل ذلك يدلل أيضاً على أن الإنسان ذو نزعات مختلفة تجاه ما حوله مما يعني أن هذه القابلية كما هي تتجه إلى أعلى بما يتجاوز المادة، ونعني بذلك الحياة العقلية والروحية، فهي أيضاً تتجه إلى أسفل أي إلى الانحطاط ونعني به اللذائذ المادية والشهوية.

ومما يفيدنا في هذا هو دور هذه القابلية التي تنطلق من روحية الإنسان وكيف أنها توجه صاحبها إلى الترقي أو الانحطاط هو ما كتبه بصفو عقله وأوضحه صدر المتألهين ﷺ في قوله عن حواس الإنسان الجسدية وقد دفع إشكالاً فلسفياً وهو تصور الكثرة في الوحدة أو العكس بقوله:

((نعم هذه الآلات استعمالاتها مخصصات لحدوث الإدراكات

والمدرِك بالذات هو النفس، فإذن النفس الإنسانية مع وحدة وجودها وهويتها لها درجات ذاتية من حدّ العقل إلى حدّ الطبيعة والحس فلها مقام في عالم العقل ومقام في عالم المثال ومقام في عالم الطبيعة))[١] انتهى.

إنّ ارتكاب الجرائم من قبل بعض أفراد الإنسان هو نتيجة لانحصار تفكيره في تحقيق الرغبات الجسدية أو النفسية ظناً منه باكتساب السعادة والحصول عليها من وراء ذلك، ولو كان العكس في تصوره وحسبانه لما أقدم عليها وارتكبها.

قال تعالى **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**[٢].

ونحسب أن وجود مثل هذه القابلية يعني استمرار الحاجة إلى قاعدة توازن تعيده إليها كلما تجاوز حدّاً من الحدود أو ولج منطقة

---

(١) الحكمة المتعالية، صدر الدين الشيرازي ٧: ٢٥٥، دار إحياء التراث ـ بيروت.

(٢) الشمس: ٧ ـ ٨.

غير منسجمة مع فطرته فلا يصح له أن يتواجد فيها، وإن من المسلَّم به أن الطبيعة الإنسانية في تحرك دؤوب وغير ثابت للبحث عن الأفضل مما يستدعي حاجتها إلى مقاييس متوازنة تساعدها على اتخاذ قرارها في ذلك الشأن.

أما علاقة هذه القابلية مع القرآن فهي علاقة الفطرة التي فطر اللهُ الناس عليها، وهي أن النفس الإنسانية التي بقدرتها أن تنتقل من عبودية الشهوات إلى عرش العقل، فلربما تهوي من عرشها[١] ذلك إلى أدنى درجات البهيمية أو العكس من ذلك في وقت قصير جداً وهي ما يستغرقه الإنسان من وقت بارتكاب تلك المعصية التي تستوجب تلك المنزلة التي تلازم ارتكابها.

وأمام مثل هذه الحالات نجد أن لوقع الآيات القرآنية منعطفات تاريخية مؤثرة جداً لا ينبغي إغفال دورها سواء أكانت على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، وكثيراً ما مر في

---

(١) قال الشيخ عبدالرحمن الكواكبي ﷺ في كتاب طبائع الاستبداد: ٨٥ ما يلي: ((الإنسان لا حد لغايته رقيّاً وانحطاطاً)).

أسماعـنا مثل هذه المواقف حتى على المستوى العلمي وكيف ان مجرد قراءة آية واحدة تغيّر كافة الموازين لصالح جهة دون جهة أخرى.

﴿أولَـئِكَ الَّذِيـنَ يَعْلَـمُ اللّـهُ مَـا فِـي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾(١)

وبما أن الغفلة من مرديات الإنسان إلى درجات الانحطاط فهو محتاج إلى عوامـل مضادة وناجعة (٢)، ولعل البلاغة القرآنية كانت أحـد أهم العوامل المدّخرة لمثل تلك الأمراض النفسية، وهذه كتب الأدب الإسـلامي تزخـر بكـثير مـن الخطب التي ازدانت بكثير من الآيـات القرآنية، وتحدث التاريخ عن أثر هذه الخطبة أو تلك، ومن المعـروف أن أكثر هذه الخطب عادة لا تكون إلاّ للتذكير والوعظ أو بـث الحماس وشحذ الهمم وكل ذلك مما يخاطب العاطفة فقط، غير

---

(١) النساء: ٦٣.

(٢) إن مـا كتبه الشهيد السعيد السيد الصدر ﷺ في كتاب دور العبادة في حياة الإنسـان جـاء توضـيحاً تامـاً لحاجـة الإنسـان المسـتمرة للعبادة ، وأن هذه العبادات هي من مستلزمات استمرارية استقامة الإنسان.

أن شمولـية الآيـات القرآنـية في خطابهـا للعقل والعاطفة في آن معاً فذلك شيء يتميز به الخطاب القرآني دون غيره.

إن التحولات التي تحدث عند الإنسان أبلغ دليل على حاجته إلى شـيء يتناسـب مـع هـذه القابلـية النفسية ويختلف عن الخطاب العقلي ويتفوق عليه في بعض المراحل ولكن بدون انفصال بينهما.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1].

قال الإمام الغزالي ما يلي :

((واعلـم أن معاني القرآن من جملة الملكوت، وانما حروفها من عالم الشهادة، والأكنة التي يبتلي بها المتقي المتعطش إلى الحق نوعان، إمـا ما ابتلي به ضعيف الإيمان من حجاب الشك والجحود، وإما ما ابتلي به المنهمك في الدنيا من حجاب الشهوات المستغرقة للقلب . فذلـك جلـي لا يخفـى كونـه مانعاً من فهم لطائف القرآن واقتباس أنواره فيها حجب أكثر الخلق))[2].

---

(١) القمر: ١٧.

(٢) الأربعين في أصول الدين، الإمام أبو حامد الغزالي: ٣٨.

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[١].

وهذا ما يذكرنا برأي العارف ابن عربي ﷺ في العقل وعدم كفايته ـ أي العقل ـ في دور الاهتداء لكونه لا يدرك غير المفاهيم الضرورية، أو الحاصلة من البديهة[٢]، وربما قارب هذه النتيجة المفكر الفرنسي ((روسو)) حين قال : إن شعور القلب فوق منطق العقل[٣].

وكانت هذه المقولة واردة في سياق اتفاق المفكر الألماني

---

(١) الأعراف: ٢٠٥.

(٢) قال الشيخ جوادي آملي في رسالة القرآن توضيحاً لرأي الفيلسوف ابن عربي في العقل: «والدليل العقلي أو النقلي في عرفان ابن عربي ذو جنبة تأييدية لا تأسيسية ، فأساس العلم هو الشهود ، وفي ضوئه لا يحصل من العقل ولا النقل أثرٌ للعلم الحصولي ، فمن يشاهد الجنة والنار الآن لا يحتاج إلى دليل ، وإذا استدل على ذلك ، فإنما يفعل لتنبيه المستعدين لا لإثبات أصل الموضوع». ص ١٢٢.

(٣) قصة الفلسفة، ول ديورانت: ٣٥٣.

((كانت)) معها بالنتيجة.

مصادر المعرفة الإنسانية

إن هناك علاقة وثيقة بين المفاهيم التي ترسم وتبعث حركة الإنسان في الحياة وبين طريقة فهمه واكتسابه لها، فهناك الصدق والكذب وهناك الهدى والضلال وهناك العلم والجهل وهناك العقل والشهوة وهناك الإرادة والانقياد وهناك الشهادة والغيب وهناك الحق والباطل والرسالة والاتّباع ومفاهيم أخرى كثيرة .

إن هذه العلاقة قد أشغلت الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ من خلال آرائهم فيما كتبوه أو أقروه حسب عقيدة كل منهم .

ولا يعتري الإنسان أي شك في عدم اتفاق هؤلاء على الخروج بتصور موحد ومشترك حول هذه المفاهيم أو تأثيرها في تكوين الفكر الإنساني.

وما لم يختلف فيه هؤلاء هو أن ساحة هذه المفاهيم هو فكر الإنسان، وهذا ما جعل الحياة والتجمع الإنساني ساحة تجاذب وصراع بين الفرد والآخر ومجتمع وغيره.

ولكل صراع أو اختلاف أدوات تتناسب مع مستوى

الصـراع، وأقصى أدوات الاختلاف هو القتل والاقتتال وأدنى هذه الأدوات هي الكلمة، وقد شوّهت التاريخَ الإنساني الكثير من هذه الصراعات التي بلغت بالإنسان ذلك الحد المرعب .

إنّ أحـد أهم اختلافات بني البشر هو اختلافهم حول مصدر المعرفة الأساسية للإنسان وبنية هذه المعرفة في تفكيره، ومنها تتفرع اختلافات شديدة جداً نتيجة لهذه الأسس الفلسفية في تحديد رؤاهم إلى الكون والوجود والإنسان(١).

---

(١) لأهمـية ذلـك ، نوجـز مـا ذكره الشهيد السعيد الصدر في كتاب فلسفتنا، حول المصدر الأساسي للمعرفة بالتالي:

الإدراك وينقسم إلى:

أولاً: التصور ((الإدراك الساذج))

ثانياً: التصديق((الإدراك المنطوي على حكم)).

القسم الأول

التصور في الذهن ينقسم إلى قسمين هما:

* المعاني التصورية البسيطة. ((كالوجود والوحدة والحرارة))

* المعـاني المركـبة من الجمع بين التصورات البسيطة. ((جبلاً من تراب وقطعة من الذهب المركب منهما جبل من ذهب)).

وللإدراك في تاريخه عدة نظريات هي :

أ ـ نظريات الاستذكار الإفلاطوني.

وتقوم على قضيتين هما:

* أن النفس موجودة قبل وجود البدن.

* أن الإدراك العقلي هو إدراك للحقائق المجردة .

ب ـ النظريات العقلية

وتقوم على وجود منبعين للتصورات هما:

* الإحساس .

* الفطرة

ج ـ النظرية الحسية

وتقوم على أن الإحساس هو الممون الوحيد للذهن البشري.

د ـ نظرية الانتزاع

وتقوم على تقسيم التصورات الذهنية إلى قسمين :

إن هذه الاختلافات هي التي تحدد العقيدة والسلوك والأخلاق، وحتى طريقة التفكير في الأشياء الخارجية، أي تحديد علاقة الإنسان بكل ما حوله.

وقد حصر الشهيد السعيد الصدر ﷺ المصادر المعرفية للإنسان بالآتي:

⮊

* أولية .
* ثانوية.

القسم الثاني:

ما يتعلق بالقسم الثاني وهو التصديق (الإدراك المنطوي على حكم) فمصدره الأساسي.

* المذهب العقلي مرحلتين.

أ ـ ضرورية (بديهية) ((التصديق بدون دليل))

ب ـ نظرية ((ما يحتاج إلى دليل))

المذهب التجريبي. ((يولد الإنسان خالياً من كل معرفة فطرية)).

الإدراك ((المعرفة التصديقية)).

١ـ معارف أساسية عقلية((يشعر العقل بضرورة التسليم بها والاعتقاد بصحتها)).

٢ـ مدى تطابق الصورة الذهنية ـ فيما إذا كانت دقيقة وصحيحة ـ والواقع الموضوعي الذي صدقنا بوجوده من ورائها[١].

ويتضح هنا أن المعلومة ـ من المصدر الثالث ـ تمر بمراحل عدة حتى تصل إلى مستوى التصديق فهي ـ أي المعلومة ـ إدراك تصوري يحتاج إلى عملية عقلية حتى تصل إلى مرحلة التصديق.

ولا قيمة لهذه المعلومة في الدعوة القرآنية قبل انتقالها إلى مرحلة التصديق عند الإنسان، بل إن التحذير من العمل بموجب هذه المعلومة خطرٌ على الإنسان نفسه، قال تعالى :

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٢].

---

(١) راجع كتاب فلسفتنا للمزيد، الشهيد محمد باقر الصدر: ١٤١.

(٢) يونس: ٣٦.

علماً أن الظن مرحلة راجحة على الشك ومع ذلك لم يسلم الظن مع رجحانه على الشك من النقد القرآني.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(١).

ليتجلى لنا الدور العقلي في عملية البناء المعرفي لإصدار الحكم تجاه المعلومة لما يترتب على العمل بهذا الحكم .

بناءً على هذه المصادر ربما لم تكن المعرفة التي تصل إلى الإنسان عن طريق المصدرين الأول والثاني مادةً لوسائل الإعلام التي تخاطب المتلقي.

ويأخذ هذا الصراع مستويات مختلفة، فمنها أن الفطرة ـ الطبيعة الإنسانية ـ لكل فرد هي التي تبحث عن الكمال فتدفعه لردّ أو دفع ما يراه منقصة له، ويرتفع هذا الدافع قليلاً حين يُسلب

---

(١) النساء: ١٥٧.

منه ما يراه من مقومات كماله، ثم يتمدد هذا الدافع أفقياً أيضاً مع تنامي موقع الفرد اجتماعياً في محيطه، بحسب مكانته في محيط عائلته أو مجتمعه أو قومه كما يتجلى في دور الأنبياء والرسل والأئمة[١].

إن هذه الغريزة التي تحرك الإنسان لكل ذلك هي بعينها التي تجعل قوة الإنسان العقلية أول سلاح يستخدمه لتحقيق أهدافه تلك.

ولعلنا نجد في قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام مرشداً ومناراً لمثل هذا التعقّل حين استعرض فرضية ربوبية غير الله[٢] في تلك اللحظات التاريخية من حياته قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ

---

(١) مع عدم إغفال وجود القابلية والاستعداد لمثل هذه المهمة حين صدور الأمر للأنبياء والرسل بذلك.

(٢) باعتقادنا أن كافة الأنبياء والرسل معصومون وموحدون ولعل الحكمة هنا هي لإظهار عجز هؤلاء الأرباب أمام الآخرين بلحاظ الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ الأنبياء: ٦٠.

لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

لما يترتب على فهم هذا النداء الفطري من مسؤولية، يتضح أن على المتلقي أن يدرك إدراكاً تاماً لما سوف يتوجّب عليه من واجبات وتكاليف تجاه نفسه لنفسه أو تجاه نفسه لغيره، بل ما يجب أن تسير عليه حركة المجتمع ككل ودوره هو في ذلك ومسؤولية بذلك المحيط.

بعد هذا البيان يتضح لنا فارق مهم جداً لصالح الدعوة القرآنية في تحديد من هو المتلقي والمسؤول أمامها ومن هو غير المسؤول فحددت لنا بوضوح معالم وسمات هذا الإنسان الذي تخاطبه.

---

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

مفهوم الوجود والإنسان

يشغل الحيز الوجودي للإنسان جزءاً مهماً من مساحة الخطاب القرآني، بل إن الوحدة الجغرافية للكون والوحدة الوجودية الزمانية لمراحل وجود الإنسان في الحياة وما بعدها التي يستند إليها هذا الخطاب تعتبر من أهم الركائز الثابتة والواضحة فيه.

ولا يعني ذلك أن هذه الوحدة في الخطاب غير قابلة للفصل[1]، غير أن الأصل في ذلك الخطاب هو الوحدة وأن الفصل والتفكيك هو حالة عرضية فيه حسب الحاجة لذلك عبر النصوص

---

(١) بدأ الحديث في الدول المنتجة للبترول عن حق الأجيال القادمة في المخزون، وذلك بعد ارتفاع الأصوات التي تطلب تخفيض الإنتاج لمواجهة الإنتاج غير المتوازن لبعض الدول مع سعره في السوق العالمي، وهذه دلالة على تطور مفهوم الوحدة في فهم الإنسان على المستوى السياسي والاقتصادي.

القرآنية والحوادث التي تعلقت بظروف وسبب نزولها.

قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[١].

فمن خلال الآيات يتضح أن الخطاب القرآني يتحدث عن كليات عامة وأمور مشتركة بين الناس لا خلاف عليها مطلقاً ـ باعتبار الوحي ـ وينطلق من تلك الحقائق التي اتفق البشر حولها منها:

☼ إن التعارف والعلاقة الودية بين الناس هو أصل التعامل بينهم.

☼ إن سبيل ارتقاء البشرية إلى أقصى غايتها هو نتيجة العمل الصالح.

☼ إن من أهم سبل تقدم البشرية هو الارتباط بين أفرادها القائم على المودة.

---

(١) الروم: ٢٢.

۞ إن العمل الإنساني مهما كان حجمه له أثر مهم جداً في دفع الإنسان من حيز إلى حيز آخر في حركته الوجودية.

أولا - العلاقة بين الخالق والمخلوق

۞ إن العلاقة بين السماء والأرض هي علاقة رحمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

منذ أن وُجد الإنسان على وجه الأرض ووجدت هذه العلاقة وكان الوحي والنبوة هما الجسر الممتد بين الإنسان وخالقه بغض النظر عما ارتكب من أخطاء من قبل من حكموا التجمعات البشرية باسم الدين من خلال الكنيسة أو الخلافة الإسلامية عبر التاريخ.

فمن خلال التاريخ البشري الممتد عبر ملايين السنين تظهر لنا صور شخصيات الأنبياء والمرسلين حيث يتوجب أن يتخذها الناس كأمثلة لهم في سلوكهم وتعاملهم مع الآخرين لما تجلى وترشح

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

مـن تلـك الشخصيات من مميزات وخصائص وبما أوضحوا للناس مـن واجبات ومسؤوليات كلفهم بها خالقهم لما يقودهم إلى النجاح في أدائها .

إن مـا أوضـحه لـنا الـتاريخ بأولويات هذه الشخصيات من خُلـق رفـيع وسلوك مستقيم، ـ وهي التي أصبحت أموراً مثالية ـ قد أحـبها الـناس وانجذبـوا لهـا لتحقـيقها وأرادوهـا لذواتهـم حـتى أصـبحت هـذه المثالـية مـداراً لدراسـة الأخـلاق في كافـة المدارس الإنسانية دون استثناء، إن هذه الأولويات المثالية لم يهتد لها الإنسان بنفسه بل تمت بواسطة تلك الشخصيات المتميزة[١].

قـال تعـالى: ﴿وَجَعَلْـنَاهُمْ أَئِمَّـةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ

---

(١) مـا نقلـه كافـة عـلماء الـتاريخ هو شهادة حتى مخالفي كل الدعوات الإلهية واتفـاقهم الكلـي عـلى اسـتقامة هـؤلاء الرسـل والأنبـياء وسمـو أنفسـهم وأخلاقهـم لتتغـيّر هـذه الشـهادة مـع ظهور الدعوة التي يحملها كل نبي أو رسـول ، فيـتهم مـن كـان منهم رشيداً بغير ذلك ويتهم الصادق بالكاذب وهكذا ينقلب الحال .!!

فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

ولعدم وحدة الزمان والمكان لبعثة هؤلاء الأنبياء نجد أن الاختلاف بينهم لا يتجاوز هذين العنصرين[٢] ـ الزمان والمكان ـ أما التشابه في دعوتهم لأقوامهم ومجتمعاتهم فهي الدعوة إلى التوحيد والارتباط بالله سبحانه والخضوع لأوامره ونواهيه.

ولما تعنيه أبعاد هذه الدعوة ولما يفرضه الإيمان بها على أفعال الفرد من التزام بسلوك مميز تنطلق من مستحبات إلى واجبات ومن مكروهات إلى محرمات، لما يوجبه ذلك كله لا يجوز على الداعين إلى ذلك قيامهم بالدعوة دون تجسيد وتطبيق ما يدعون إليه بأنفسهم.

إن ما تتخذه المدارس الإنسانية ـ على اختلاف مذاهبها وعقائدها وأزمانها ـ واتفاقهم على دعوة الآخرين إلى أخلاق متشابهة من عدالة وأمانة واستقامة وعدم اعتداء على الآخرين والاجتهاد في تحمل المسؤوليات وكثير من هذه الأخلاقيات المتنوعة

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) بناء على وحدة مضمون الدعوة التي جاء بها كافة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

والمـرغوبة، إن كـل ذلـك يـبرز بصـورة قاطعـة وجلـية أن التّراحم والـتعاطف بين الناس هو أصل وقاعدة ترتكز عليها هذه العلاقات الإنسانية.

وتأكيداً لذلك ذكر الشيخ جعفر سبحاني ما نصّه:

((إن العقائد الدينية تعد رصيداً للأصول الأخلاقية إذ التقيّد بالقـيم ورعايـتها لا ينفك عن مصاعب وآلام يصعب على الإنسان تحمّـلها إلاّ بعـامل روحـي يسـهلها ويـزيل صـعوبتها لـــه، وهــذا كالتضـحية في سـبيل الحـق والعــدل ورعايــة الأمانــة ومســاعدة المستضعفين))[1].

ولعـل مـن الواضح أنه لم تخلو أي دعوة توَجّه بها مصلحٌ أو داعـية أو حـاكم أو غيرهـم إلاّ وتبـيّن مـن خلال دعوته تلك مقام ذلـك الأصـل ـ التراحـم ـ في بناء أي تجمع يزمع إقامته من دعا لـه وتبنى إقامته.

إن هــذا الـتوافق اللاإرادي كذلك يؤكّد أيضاً أن سلامة مثل

---

(١) الإلهيات ، الشيخ جعفر سبحاني: ٨.

هـذا الـتجمع الـذي يقـوم عـلى هـذا الأصـل، وأن هـذه السلامة والـنجاح لـن يسـتمرا بـدون تأكـيد هـذا الأصـل خـلال حركـته الاجتماعية في الحياة.

ولو تتبع المرء عبر التاريخ مصدر ومنشأ هذا الأصل وما تفرع مـنه من الأخلاق الحسنة لوجد أن هذا الأصل هو سماوي المنشأ دون ريب في ذلك.

حيـث إنه لم نجد عبر التاريخ القديم من دعا إلى فكرة شاملة ومـتكاملة لتنظـيم التجمعات الإنسانية وكانت تدّعي انفصالها عن السـماء وتحمـل في طـيات دعوتهـا تلك النظرة التراحمية بين أفراد المجـتمع بصـورة متسـاوية وتـتخذ من مثل العدالة السماوية شعاراً ومـنهجاً، وهـذا لا يعـني أن الـنظم الحديـثة الـتي تبنـت مـثل هذه الدعوات مع انفصالها عن السماء تنقض ما ندّعيه، بل إن ما يظهر أن هـذه النظم الحديثة تتضمن المبادئ السماوية حتى وإن لم تصرّح بها.

فهـناك الدعـوة إلى حـرية الإنسـان ونـبذ التميـيز العنصري وحقـوق الإنسـان وحقـوق المرأة، فكل هذه الدعوات وما تعنيه هي دعـوات قديمـة وليست جديدة في عرضها والدعوة إليها، ويظهر لنا

أن الاختلاف بين القديم والجديد في الدعوة إليها هو أن هذه الأمور تحولت من دعوات فردية إلى دعوات تتبناها النظم الحاكمة، ولا يغيب عن أذهاننا أن التمييز العنصري كان له وجودٌ قانوني حتى نهاية العقد الأخير من القرن العشرين في جنوب أفريقيا، والعبودية كان لها وجودٌ قانوني حتى القرن التاسع عشر في أمريكا .

إن مثل هذين النظامين بتبنيهما أنظمةً علمانية في حكمهم لتجمعاتهم الإنسانية وبعد أن تخلصا من نظام الرق ومن نظام التمييز العنصري أخيراً، إن ذلك يؤكد لنا أن هناك تطوراً ايجابياً حققته الدعوات القديمة (السماوية) وإن تأخر المجتمع الإنساني في الإيمان بها والعمل على تطبيقها.

ولسوف ينعطف بنا الحديث هنا بالضرورة إلى ما يدور حول محورية الإنسان في الكون ولهذا الحديث في الفكر والثقافة السائدة عدة اتجاهات مختلفة لما بينهم من تباين واضح في ذلك[1].

فالأول منهما ينطلق من محورية الإنسان في هذا الوجود لبناء

---

(١) لا يشمل هذا التقسيم غير المؤمنين بأن الله سبحانه هو الخالق لهذا الكون.

تصـوراته الفكـرية والثقافـية والتنظيمـية في الحـياة باستقلالية عن مصـدر وجـوده مـع الإيمان بمصدرية غير الإنسان لهذا الوجود، وأن الإنسان مؤهل ويمتلك من القابلية ما يمكّنه لتحقيق غاياته وسعادته بـدون الخضـوع للتفسـيرات الأصـولية السـابقة أوفهـم المتديـنين الأصـوليين للديـن، وقـد اسـتدل بعضـهم على ذلك بوجود ثقافة وفكـر قديـم في ثقافـة المسـلمين منذ القرن الثالث والرابع الهجري تؤيـد وتعزز هذه المقولة[١]، وربما ذهب البعض منهم إلى أن تفسيره ذلـك لا يخـالف الديـن أصـلاً، بـل إن تفسير الأصوليين السابقين يتناسب مع ظروفهم التاريخية السابقة وأن تفسير الأصوليين الحاليين للديـن فيه قصور عن قراءة النصوص الدينية بما يتناسب مع التطور الفكري للإنسان في العصر الحديث..![٢] .

---

(١) ذهـب إلى هـذا الرأي المفكر الجزائري محمد أركون في الرسالة المقدمة لنيل شـهادة الدكـتوراه مـن جامعـة السوربون بعنوان : نزعة الأنسـنة في الفكر العربي.

(٢) ذهـب إلى مـثل هذا الرأي عدد من المفكرين منهم محمود أمين العالم وفؤاد

كما يندرج مع هذا الاتجاه أصحاب الفكر العلماني من المسلمين والذين يؤمنون بفصل الدين عن الدولة، وأما اختلافهم عن أصحاب المذهب السابق فهو قبولهم بأي تشريع ولو كان في هذا التشريع ما يخالف الدين بالضرورة- حسب رأيهم-، وهذا وجه اختلافهم عن أصحاب المذهب السابق الذين لا يقبلون بهذا.

وأما ثاني هذه المذاهب فهو من يرى محورية الإنسان ولكن من منطلق استخلافه وتفويضه من قبل الله سبحانه وأن هذا التفويض لا يتجاوز الحدود المرسومة له في طريقة تعامله وبناء علاقاته مع محيطه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو الأسري.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّ خَسَاراً﴾(١).

زكريا وحامد نصر أبو زيد وغيرهم.

(١) فاطر: ٣٩.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرض خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وذلك ما ذهب إليه أصحاب التيار الإسلامي من كافة المذاهب الإسلامية مع تعدد هذه الاتجاهات الفكرية حتى في المذهب الواحد.

علماً أن أصحاب المذاهب الإسلامية قد انقسمت فيما بينها حول طريقة فهمهم للدين كما هو واضح في تعدد المذاهب أو سدّ باب الاجتهاد عند المذاهب السنية والوقوف عند اجتهاد أئمة مذاهبها حتى قيل :

((وأما، وقد سدّ باب الاجتهاد الذي هو باب العقل إلى الشريعة الإسلامية لتحصيل ثمراتها الطيبة المباركة وتوثيق رابطة المؤمنين بها فإننا لا نجد بُدّاً من الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد

---

(١) البقرة: ٣٠.

وكشـف ما نزل بالمسلمين من سوء بإغلاق باب الاجتهاد منذ قرون طويلة حتى لقد كادت تتقطع الأسباب بينهم وبين شريعة الله))[١].

وفي بـاب الـتجديد والاجتهاد قال الدكتور وهبة الزحيلي ما يلي[٢]:

---

(١) عبد الكريم الخطيب ، سدّ باب الاجتهاد وما نتج عنه: ١٢٧.

(٢) اعتبر الدكتور وهبة الزحيلي مجال الاجتهاد محصوراً في:

أولا: غير نطاق العقائد والعبادات والأخلاق والمقدرات الشرعية.

ثانيا: فيما لا نصّ فيه أصلاً، أو فيما كان نصّاً ظنّي الثبوت أو ظنّي الدلالة.

انظـر: القـرآن الكـريم بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية للدكتور وهبة الزحيلي: ١٣٥ .

ونلاحظ عليه :

أولاً: إن هـنا تعارضـاً في هذا الحصر، وذلك لعدم اتفاق المسلمين على كـل تفاصـيل العقـائد والعـبادات ووجـود اخـتلاف كبير بين المسلمين في تصـوراتهم الاعـتقادية. وهو ـ بلا شك ـ ناتج عن اجتهاد في ذلك، وذلك يعـني أن هـذه الأمـور العقائديـة أو العـبادية لم تثبت بأدلة قطعية بل بأدلة

((ما أكثر الأحوال والأوضاع الجديدة التي تتطلب اجتهاداً جديداً، ولا نجد لها حكماً فقهياً لدى علمائنا الأوائل))[١].

ومن ذلك الانقسام، حرمة الاجتهاد عند مدرسة الأخباريين



ظنية الثبوت أو ظنية الدلالة عند من اختلفوا عليها ، وهذا يفيد أن الاجتهاد جائز في كل حكم قائم على دليل ظنّي الثبوت أو ظني الدلالة، ولو كان في نطاق الاعتقادات أو العبادات أو الأخلاقيات مثل مسح الرجلين في الوضوء أو التكتف في الصلاة بدل الإسبال أو وجوب الخمس في غنائم الحرب فقط ، فكيف يتم التعامل مع تلك النصوص الظنية الثبوت والدلالة ؟ .

وثانياً: يجب أن نشير إلى أن الاجتهاد يختلف في مفهومه وأدواته وغاياته بين المذاهب الإسلامية، فهو يعني في بعضها إبداء الرأي الشخصي في الأحكام الشرعية، وفي بعضها الآخر لا يعدو كونه إعمالاً للفكر البشري في كشف مراد الشارع .

(١) القرآن الكريم بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية، الدكتور وهبة الزحيلي: ١٣٦.

الشيعة[١]، أو وجوب استمرارية الاجتهاد في فهم الدين حسب الأصول المقررة لذلك عند الأصوليين من علماء الفقه الجعفري وعدم مشروعية منع الاجتهاد للمقتدرين والمؤهلين لذلك، كما أن هناك خلافاً حول مفهوم ولاية الفقيه المطلقة أو ولاية الفقيه المحدودة بينهم.

أما ما لا نشك فيه أبداً أن لكل فهم من هذه المفاهيم المختلفة دوراً مؤثراً وهاماً في بنية النسيج الفكري عند الإنسان حول علاقته بمحيطه، وهذا ما دعانا إلى تسجيل مثل هذه الاختلافات المتعددة حول تعدد الاتجاهات الفكرية لفهم محورية الإنسان من شموليتها أو محدوديتها أو عدمها.!

---

(١) بدأت تعلو أصوات كثيرة في العقود المتأخرة بين علماء المذاهب السنية داعية إلى فتح باب الاجتهاد وعدم الوقوف عند اجتهاد الأئمة الأربعة ، وذلك لعدم وجود موانع علمية لذلك ، وأما بالنسبة للأخباريين من الشيعة فلم يزل موقفهم الفكري ثابتاً حول ذلك ، وإن تراجع وجودهم الفكري في الساحة عما كان عليه في السابق.

كما أن هذه الاختلافات توضح لنا مدى سلبية أو إيجابية الإنسان بالتعاطي مع محيطه أو من أي منطلق ينبعث فعله الإيجابي ذلك.

ومع ذلك كله نجد أن التيارات الإسلامية المتعددة المذاهب وغير الإسلامية أيضاً ـ لقولها بوجوب إعادة قراءة النص القرآني بما يناسب العصر ـ لا ترى في الخطاب القرآني غير تقوية علاقة الإنسان الإيجابية بكل ما يتصل به في الكون، وأن هذا الخطاب الموجّه للإنسان لا يجب التخلي عن العمل به من ناحية المسؤولية الأخلاقية أو المسؤولية الشرعية وهذا ما يفصل بين الاتجاه الإسلامي وغيره من الاتجاهات غير الإسلامية، وهذا ما أراده الشيخ السبحاني في ما نقلناه عنه سابقاً في نفس الفصل.

ويجب التفريق هنا بين فعل الأمر بدافع من الناحية الشرعية أو بدافع من شعور أخلاقي فقط، ولا يعني ذلك أبداً أننا نسلّم بخلو الأول من الدافع الأخلاقي.

ولأهمية هذا البعد فيما بين هذين الاتجاهين نجد أن غير الإسلامي ربما لا يجد حرجاً فيما لو أسهم بتنفيذ قوانين لا تتفق مع مبادئ الشريعة والتي لا خلاف على مخالفتها لتلك المبادئ

الإسلامية، بمعنى أنه مع تعلّقه بالإسلام كدين واعتقاد فإنه يخالف ما يؤمن به.

ونحن لا نريد أن نتوسع فيما يرى من مبرّرات لذلك الفعل من مثل احترام الديموقراطية وهذا مبدأ يستحق الاحترام بحد ذاته، غير أن العمل بخلاف المبادئ التي يؤمن بها الإنسان تستحق عكس هذا الاحترام.

ومثال ذلك ما يجري في كثير من الدول الإسلامية من إباحة بعض المحرمات كالخمور أو تقنين وجود النوادي الليلة التي أعدت للفجور بقوانين مرسومة من قبل حكومات هذه البلدان، والتي لم نجد أحداً من منفذيها أو مِن ممثليها مَن يدّعي غير الإسلام ديناً ومعتقداً، مع عدم وجود أي رأي فقهي شرعي ولو ضعيف يرى جواز ذلك!

فأما تفسير الإسلامي لو عمل بخلاف ما يؤمن به فهو بسيط وواضح جداً وهو أنه ارتكب محرماً وأنه أسهم بتخلف المجتمع الذي يحيا فيه ولم يقم بمسئوليته أمام الله سبحانه[١].

---

(١) لا نقصد هنا التهوين من ارتكاب الذنوب والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ بقدر

ولكن ما هو تفسير المسلم ذي النزعة غير الإسلامية لتلك الحالة أي بمساهمته في العمل بخلاف ما يؤمن به؟!!

ولا بد هنا أن يأتي الجواب بما يتفق مع تلك المبادئ التي أقام عليها منهجه ونسج من خلالها نظامه وعلاقته مع الحياة حتى يتم تصحيح فعله على ضوء ذلك ولأن جواب الإسلامي ذلك لا يليق مع مقولة أن التدين أمر شخصي ولا يليق ممن يعمل بمبادئ غير إسلامية أن يقول: إن العمل خلاف المبادئ- غير الإسلامية- التي يؤمن بها ويرى أنها تسهم في اكتساب الكمال الإنساني هو انتصار لتلك المبادئ.

وكما كان جواب الإسلامي بسيطاً وواضحاً في عرض مرضه وحالته نجد أن العلاج أيضا سهل التناول وواضح أيضاً لمثل تلك الأخطاء أو العمل بخلاف التشريعات بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

ما نقصد وضوح الجواب العلمي في مضامين التوجيه الالهي والاستدلال به فقط.

رَسُـولٍ إِلاّ لِيُطَاعَ بِـإِذْنِ اللّـهِ وَلَـوْ أَنَّهُـمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللّـهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُـمُ الرَّسُـولُ لَوَجَـدُوا اللّـهَ تَوَّابـاً رَحِيماً﴾[١].

أو بقولـه تعـالى: ﴿إِلاّ مَـنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٢].

ويظهـر لـنا أهمـية معـرفة الـداء والخلـل عندما تقل القيمة العطائـية للإنسـان فـيما هو مسؤول عنه أو بما لـه علاقة به أياً كان مستوى هذه العلاقة.

وتأتي الطمأنينة كأهم عنصر نفسي يدفع بالإنسان لتقديم ما يمكنه تقديمه عندما يقبل على تحمّل مسؤولية تلك الخلافة التي كرمه الله سبحانه بها وشرّفه على كافة مخلوقاته بها.

ومـن منطلق هذه المحورية المرتبطة بالخالق لا المستقلة عنه كان الإنسـان هـو المحـور الأسـاس لهـذا الوجود غير المنفصل عن خالقه

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الفرقان: ٧٠.

وكما أن هناك علاقة إيجابية بما حوله من موجودات أخرى فإنه يرى أن إيجابيته إنما تنعكس من علاقته الإيجابية بمصدر الوجود كله .

كما أنه من الأهمية الإشارة إلى أن تلك المحورية ـ المستقلة ـ غير مقبولة ولا تصح ان تكون لمواصفات غير متقدمة في إنسانيتها أو أنها متساوية عند كافة أبناء الجنس البشري حتى عند من يرى استقلاليتها، بل إنها تنطبق على مفهوم مثالي ولا بد لهذا المفهوم المثالي من مصاديق تجسده على أرض الواقع وإلا تعطل مبدأ الثواب والعقاب حتى عند من ينادون بهذه الاستقلالية ولا يحق لهم المناداة بمعاقبة المجرمين وهم يمثلون هذه المحورية المستقلة أو إيقاع الجزاء بهم أيا كان هذا الجزاء.

ثانيا ـ الدنيا والآخرة

○ إن الحياة والموت ليسا شيئين منفصلين عن بعضهما البعض في وجود الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ

فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(١).

وتستمر هذه الدعوة حيةً في ضمائر كافة البشر وفي أقطار الكون لا تحدّها الحدود، وتكسر كافة الفوارق العرقية والجنسية بين أبناء البشرية، وتقفز لغتُها فوق كافة اللغات المتعددة لتصل إلى فهم الإنسان حيثما وُجد .

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(٢).

غير أن الفارق الوحيد الظاهر بين القديم والحديث في هذا الخطاب هو جغرافية الحياة والموت في مضامين هذين الاتجاهين، حيث إن الدعوة السماوية لا تفصل بين هذين الجزئين في دعوتها، ويتجلى ذلك بوضوح تام في غايتها من الدعوة .

أما الدعوة الإعلامية الحديثة وحتى القديمة (غير المؤمنة) في

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الحجرات: ١٣.

إعلامها فبعيدة عن الحياة الآخرة وكأن لا علاقة لها بما يتعلق بالإنسان بعد الحياة، بل إن الإنسان في حياته هو الساحة الوحيدة والمحور الرئيس في دعوتها ولا شأن لها بعد ذلك، وهذا بعكس الدعوة القرآنية في إعلامها حيث إن محور دعوتها الإعلامية هو ما بعد الحياة الدنيا وهو الجزء الأكثر أهمية في خطابها بالنسبة للنتائج، وأما الحياة فهي الجزء الأكثر أهمية بالنسبة للعمل(الآخرة) وهنا تتضح العلاقة المترابطة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة وأثر وضوح هذه العلاقة(العمل والنتيجة) في فهم الإنسان وانعكاس هذا الفهم على سلوكه[1].

إنّ وضوح مثل هذه العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة عند الإنسان وانسجام هذه الرابطة مع أهدافه في الحياة الدنيا

---

(١) يقول الفيلسوف صدر الدين الشيرازي « فمن فتح الله على قلبه باب الموازنة بين العالمين ، عالم الملك والشهادة وعالم الملكوت والغيب يسهل عليه سلوك سبيل الله والدخول في دار السلام». الحكمة المتعالية ٩: ٣٠٢، دار إحياء التراث ـ بيروت.

وتفاعلها في سلوكياته هو عين الإيمان الذي تصنع حركته وتدفعه لموقعه المفترض، وعلى هذا يكون القانون الحاكم على الإنسان هو إرادته ونفسه وضميره وليس جهة خارجة عنه، ومن خلال ذلك يتضح أن التحرك الذاتي لتطبيق القانون الحاكم والجامع للمجتمع هو قائم على الترغيب أولاً وليس الترهيب.

كما أن السلوك الطبيعي للإنسان في أغلب مواقفه الطبيعية وغير الطبيعية أيضاً يوضح لنا أقوى علاقة يتعلق بها الإنسان وتبعث في نفسه الشعور بالاطمئنان والسكينة وهي علاقته بالسماء وعلاقته بالغيب تلك القوة التي يعلم الإنسان أنها أقوى قوة مهيمنة في هذا الوجود.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

إن ما نسبه القرآن في هذه الآية من إسراف وأطلقه على من

---

(١) يونس: ١٢.

أغفل هذه الرابطة الفطرية التي تجلت من الإنسان في ساعة العسر والشدة تليق وتتناسب أشدّ التناسب مع مثل هذه النفسية التي تتنبه في ساعة الحاجة وهي تعلم مقدرة واستطاعة تلك الجهة ثم لا تلتفت إليها في غير المحنة وتغفل أو تتغافل عنها، أي أن العلم بهذه المقدرة حاضرٌ في عقل الإنسان وروحه وليس غائباً عنه وهذا غاية في الإسراف.

إن كل علاقة غير هذه العلاقة وإن تعددت تأثيراتها في تصرفاته لا تمثل حقيقة غايته الفطرية، ولا تزرع الاطمئنان والسكينة في نفسه مهما كانت هذه العلاقة وثيقة أو كانت مرتبطة بمصدر قوة كبيرة غير تلك العلاقة.

إن الأمل في تفكير الإنسان هو أشبه ما يكون بالقوة التي يتسلح بها الإنسان لمواجهة تحدّيات الحياة، والأمل في تحرك الإنسان هو أشبه ما يكون بالغاية التي يسعى لكسبها وتحقيقها، والأمل في تفكير الإنسان عند بلوغ غايته يتحول إلى مرتبة أخرى وأعلى غير التي حققها.

ويظهر بوضوح تام في بيان كثير من الآيات القرآنية أن خطاب الدعوة خلالها لا يبتعد عن الأمل في نفس الإنسان مهما

ارتكب من كبائر وجرائم حتى بلوغه من العمر عتيًا وذلك مع ملاحظة أن الموت وما بعده يشغل الفكر الإنساني منذ وجوده حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

إنّ هذا التوازن بين طرفي وجود الإنسان- الحياة الدنيا والآخرة - في الدعوة الإنسانية هي التي تلبي الرغبة الخفيّة في ذاته وتفتقدها الدعوة الإعلامية الحديثة (غير القرآنية).

من هنا نقول: إن التوازن في الدعوة القرآنية يدل على شفافية العلاقة وصدقها والتي أوجدتها تلك العلاقة مع السماء وأسستها على الرحمة لا غير.

قال السيد جمال الدين في رده على الدهريين :

((أكسب الدين عقول البشر عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، لكل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء هيئتها

---

(١) النساء: ٤٨.

الاجتماعية، وأساس محكم لمدينتها، وفي كل منها سائق يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقي إلى ذرى السعادة، وفي كل واحدة وازع قوي يباعد النفوس عن الشر، ويردعها عن مقارنة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يبيدها ويبددها.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان مَلَكٌ أرضي، وهو أشرف المخلوقات .

العقيدة الثانية: يقين كل ذي دين بأن كل أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

العقيدة الثالثة: جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي والانتقال به من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى)) بيت الاحزان وقرار الآلام ((إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها ولا تنتهي مدتها.

ولا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة في الاجتماع البشري والمنافع الجمّة في المدنيّة الصحيحة وما يعود منها بالإصلاح على روابط الأمم، وما لكل واحدة من الدخل في بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة

والموادعـة، والأخـذ بهمم الأمم للصعود في مراقي الكمال النفسي والعقلي)) [١].

ولعـل مـا عبر به العلاّمة محمد حسين الطباطبائي جاء شاملاً لهذين الاتجاهين المختلفين بالنظر إلى الموت ووجود الإنسان بقوله:

((إنّ الـنظرة العابـرة تفترض أن موت الإنسان فناؤه وعدمه، وحـدّد حياة الإنسان بالأيام التي يعيشها فيما بين ولادته ووفاته، في حـين نـرى أن الإسـلام يعتـبر المـوت انـتقالاً من مرحلة حياتية إلى مـرحلة حياتـية أخـرى، وللإنسان حياة أبدية لا نهاية لها، وما الموت الـذي يفصـل بـين الـروح والجسـم إلا ليورده المرحلة الأخرى من حـياته، وإن السعادة والشقاء فيها يعتمدان على الأعمال الحسنة أو السيئة في مرحلة قبل الموت))[٢].

وممـا يكـرّس هـذا الاخـتلاف عن الدعوة القرآنية هو إغفال

---

(١) الـرد عـلى الدهـريين ، جمـال الديـن الأفغـاني (الأسد آبادي): ٧٧ تحقيق الشيخ محمود أبو رية.

(٢) الشيعة في الإسلام، العلامة محمد حسين الطباطبائي: ١٤١.

الحديث عن المصير المحتوم للفرد وإغفال ما يجب عليه تجاه تغييب هذا المصير عنه مع أهمية حضور مفهومي الحياة وما بعدها في فكر الإنسان وفعله(١).

---

(١) توضيحاً لمكانة الموت في الفكر الإنساني وما أوجده من قلق عميق جداً جاء في الموسوعة الفلسفية ١: ٧٩٤ ما يلي:

((لقد حاولت الفلسفات التقليدية ـ التي لم تكن مهيأة كفاية لتحمّل القلق الناجم عن المجهول ـ أن تبدد الضائقة الشعورية التي يسببها الموت بواسطة شبكة من التفسيرات الدينية أو العقلانية، بالمقابل نرى أن الفلسفات الحديثة التي يغلب فيها الطابع الظهوري تتماثل ـ بفعل تجذرها ـ في المناخ الوجداني، مع القلق، لدرجة انها تفقد كل مَعْلَم موضوعي يقبله العقل.

لذلك أصبح من شأن كل مقاربة تنطوي على التهجين معاً أن تحافظ على المكتسبات التاريخية في هذا الموضوع ، حتى وإن اضطرت ـ لهذه الغاية ـ أن تنتمي إلى الماورائية التي تبحث بالكينونة ، هذا مع العلم بأن هذه الفلسفة الماورائية تبدو الفلسفة الوحيدة التي تفسر القلق الناجم عن الموت ، إذ تستطيع أن تعين ـ بل أن تسمي ـ المجازفة المأساوية التي تزكي

ويوصلنا الشهيد الصدر إلى صلابة هذه القاعدة التي تقوم عليها الدعوة القرآنية وهشاشة الفكر المضاد القائم على تجاهل الحياة الآخرة بقوله:

((المادي هو كذلك مسؤول عن الدليل على النفي، لأنه لم يجعل القضية الميتافيزيقية موضع شك وإنما نفاها نفياً قاطعاً، والنفي القاطع كالإثبات القاطع ، يفتقر إلى الدليل حين زعم أن السبب المجرد لا وجود له))[1]

إنّ تغييب الحياة الآخرة عن فكر المتلقي أو توجيهه إلى التعاطي مع الحياة الدنيا بانفصالهما هو طريقة قاصرة عن بلوغها بالإنسان إلى الحقيقة الكاملة وطريقة مضللة لا تتناسب وما تظهره من حرص على مراعاة المصالح الإنسانية في خطابها.

ولتأكيد هذه المقولة نذكّر بالحضور التاريخي في الموروث

هيب هذا القلق ، وبالتالي تستطيع اكتشاف ما يتجاوز الموت)). انتهى.

(١) فلسفتنا ، الشهيد محمد باقر الصدر: ١٨٥.

الإنسـاني لأسماء الكثير من عظماء الإنسانية بأكثر من صعيد وليس هـناك لهـذا الحضـور أي قـيمة فعلـية تعـود لهؤلاء العظماء أنفسهم خصوصاً بعد تحوّلهم إلى الجزء الآخر (الموت) من وجودهم ـ حسب الخطاب غير القرآني ـ وهذا ما لا يتفق مع الدعوة الإعلامية للقرآن عـندما يقـترن هـذا العمـل الصـالح بالإيمـان فإن ديمومة عطاء عمل الإنسـان مسـتمرة وغير منقطعة حتى بعد تحوّله إلى الجزء الآخر من وجوده وانتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة حيث قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١].

ولا نـنفي بذلـك وجـود كثير من غير المسلمين ممن يؤمنون بالثواب والعقاب.

فباسـتعراض آراء الكثير من المفكرين غير المسلمين تلوح لنا هذه النتيجة التي تشع من خلال آرائهم التي استقرّوا على شواطئها ومـنهم المفكـر الألماني ((كانت)) فقد جاء في كتاب قصة الفلسفة ما

---

(١) النحل: ٩.

يلي :

((كيف يمكن لهذا الشعور بالحق أن يعيش إن لم نكن نحس في أعماق قلوبنا وقرارة أنفسنا أن هذه الحياة ليست إلاّ جزءاً من حياة، وأن هذا الحلم الدنيوي ليس إلاّ مقدمة لميلاد جديد وبعث جديد.كيف يمكن لهذا الشعور بالحق أن يعيش إذا كنا لا نحس، وندرك بطريقة غامضة أن في الحياة الأخرى الأطول أمداً سيجزى كلّ إنسان فيها أضعافاً مضاعفةً من الحسنات والأجر على ما قدمه من أعمال صالحة في هذه الدنيا))(١).

ومن خلال المسيرة التي تنبعث من إرادة الإنسان في حياته نستطيع أن ندرك إحساسه الداخلي تجاه مسيرته تلك، وإلى أي مدىً من الطمأنينة قد انغمست إرادته حين تنطلق خطواته لتحقيق هذه الرغبة أو تلك، حيث إن كيفية التنقّل من موقع إلى موقع آخر له دورٌ مهمٌ في أداء الإنسان لما يراه من مسؤولية حينها، قال تعالى :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّة

---

(١) قصة الفلسفة، وِل ديورانت: ٣٥٢.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١].

ثالثا ـ معايير التفاضل

• الاختلاف في الجنس واللون والمكان واللسان والزمان بين الناس أو التمايز المادي بين أفراد الناس لا قيمة له في ميزان التفاضل بينهم.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾[٢].

الحياة الدنيا هي ساحة عمل لبناء كيان إنساني متكامل لمرحلة لاحقة، وتتعدد الاحتياجات في هذه الساحة للشروع ببناء هذا الكيان .

فحاجة الإنسان لاستمرار وجوده على هذه الساحة لا يمكن بدون وجود الرجل والمرأة معاً، والمكان والزمان ضرورة ظرفية

---

(١) الفجر: ٢٧ـ٣٠.

(٢) النساء: ١٢٤.

لوجوده.

وكذلك الحديث عن الغنى والفقر مع عدم إغفال الجوانب السلبية في طريقة توزيع الثروات للنظم الحاكمة في كل مجتمع، وكذلك عدم إغفال اختلاف وتفاوت قدرات الأفراد بين بعضهم.

أما نشأة اختلاف اللغات والجنس واللون فليس هنا مجال بحثها ويمكن الرجوع إلى ما كتبه أهل الاختصاص في ذلك[١].

فمع مرور الزمن تتراكم المعارف والتجارب الإنسانية نتيجة لحرص الإنسان على البحث عن الأفضل أو البحث عن السلامة وسبيل النجاة والغلبة، وتأتي هذه النتائج على أشكال متعددة، فهناك التطور العلمي فيما يتعلق بالصناعة بجميع جوانبها التقنية والهندسية والاتصال والنقل وغيره، وهناك التطور العلمي فيما يتعلق بالطب والزراعة والعلوم الإنسانية مثل علم النفس

---

(١) ينظر كتاب العدل الإلهي، الشهيد مرتضى مطهري ، حيث تناول أسرار الاختلاف بين الأفراد مثل اللون والقبح والجمال وغيره من مثل هذه الاختلافات بصورة دقيقة جداً.

والاجتماع وغيره من العلوم الأخرى.

لقد كانت الكثير من التجمعات الإنسانية وحتى عصر قريب قائمةً على نوع من التمايز والاختلاف كالعنصرية والرق كما ذكرنا سابقاً.

والسؤال الدائر هو:

هل أن التأثير السلبي لهذه التمايزات غاب عن ساحة الفعل الإنساني بعد غيابها من الساحة القانونية ؟

وهل غابت هذه الآثار السلبية عن ساحة الدعوة الإعلامية غير القرآنية؟

إن ما يعيشه المجتمع البشري اليوم من مشاكل جمّة وعلى أكثر من أفق ما هو إلاّ ثمرة من ثمار تأثير هذه الاختلافات والتمايزات سلباً في حركة المجتمعات في الحياة.!

فهناك مفاهيم لا زالت تؤثر بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة في دوائر صناعة القرار نتيجة لقوة حضورها ووجودها في أذهان وتفكير القائمين على هذه الدوائر المتنوعة والمتعددة والمشرفين عليها، فهناك الرجل والمرأة، وهناك الأسود والأبيض، وهناك العربي والعجمي، وهناك الأصولية والحداثة، وهناك الشمال

والجنوب، وهناك الغنى والفقر وكثير من المفاهيم المشابهة.

وهو ما نتج عن حضور هذه المفاهيم في الإعلام بآثار سلبية، ولما يمثله حضور المفكر محمد أركون في عمق الساحة الثقافية والقانونية في الغرب ولما تمثله جغرافيته السياسية بين الاستعمار الفرنسي للجزائر وهجرته إلى فرنسا كمواطن ومراقب بمحاولاته للتغيير الثقافي وتجديد أطر العلاقة بين الثقافات المختلفة والمتناحرة باطلاعه على مناحي التأثير وعلى مصادر القرار.

أنقل ما أورده في كتاب ((معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية)) حول ما أعنيه بالحضور السلبي لمثل هذه المفاهيم بقوله ما يلي:

((نلاحظ أن جميع موظفي الجمهورية هؤلاء يمارسون الجهل المطمئن تجاه لغات الأجانب وثقافاتهم حتى ولو أصبحوا مواطنين فرنسيين. وهذا الجهل مبرَّر عن طريق الأطروحة المعصومة التي لا تناقش ولا تمس: أي أطروحة الانصهار والاندماج. نقول ذلك على الرغم من أن هذه الأطروحة أثبتت فشلها وكشفت عن طبيعتها القسرية والتعسفية منذ أن كانت قد طبقت في الجزائر عام ١٩٣٠ . وهكذا نجد أن الخطاب الرسمي الفرنسي يهمل المفهوم الجديد الخاص بالحقوق الثقافية حتى لو أدخله الاتحاد الأوربي. بل إنه

يجعله مستحيلاً على التفكير))[١] انتهى.

إنّ التأثير السلبي لهذه الاثنية في الدعوة الإعلامية غير القرآنية واضحة تماماً، كما أن هذه الدعوة الإعلامية غير القرآنية تحاول معالجة هذه التأثيرات السلبية في خطابها من جهة، غير أنها تكرّسها من جهة أخرى، وقد جاء في كتاب أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ما يلي:

((والبرهان على عقلانية التغيُّر تتحكم كلياً بفعاليات روحنا وبالتالي كل تاريخنا الحاضر هو أن مصطلح شمال جنوب قد فُرض من قبل السياسيين وأُجبر المثقفون والمفكرون، كما هي العادة دائما، على التفكير به عملياً))[٢] انتهى.

وهذا ما تعرّض له القرآن الكريم وشخّصه بقوله تعالى:

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، محمد أركون: ٣٠٩.

(٢) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، محمد أركون: ١٣٦.

يَكْتُمُونَ﴾(١).

وقال تعالى:﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

إنّ هذا التباعد والتناقض في كثير من الأحيان بين القول والعمل هو ما نقصده بتكريس التأثيرات السلبية في الخطاب الإعلامي المذموم .

فمما لا شك فيه أن تأثير الفعل في مجال الدعوة أكثر بكثير من تأثير القول .

كما أن الدعوة باللسان لفعل شيء ما والتخلي عن تحقيق

---

(١) آل عمران: ١٦٧.

(٢) الفتح: ١١.

(٣) الصف: ٢.

مضمونه بالفعل هو في حقيقته دعوة فعلية للتخلي عن تلك الدعوة وعن مضمونها!

لقد كان التفاضل في الدعوة القرآنية في سياق الآيات التي تخاطب الناس كافة ثابتاً منذ أن أوحاها الله سبحانه إلى رسوله الصادق الأمين أوحاها إلى أنبيائه السابقين كافة، وكان مدار التفاضل فيها هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح بعد أن أثبتها كواقع في حياة الإنسان.

وإجابة على السؤال السابق نرى أن هذه التمايزات والاختلافات بين الأفراد موجودة في دوائر صناعة القرار وفاعلة سلباً .!

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١).

ومن جهة أخرى نجد أن الدعوة القرآنية تتفاعل مع العمل أياً كان حجمه في نظر صاحبه خيراً أو شراً، لما لذلك العمل من

---

(١) النحل: ٩٧.

تأثير في الساحة الإنسانية.

فما يظهر من خلال الآيات القرآنية في خطابها الموجه إلى الرجل والمرأة معا هو في ما يتعلق بالمصير المشترك بينهما وهو مصير الإنسان .

فالخطاب القرآني لا يفصل بينهما وذلك أن المصير المشترك لهما هو واحد فيه.

رابعا ـ الاختلاف والتقدم الاجتماعي

• الاختلاف في الجنس واللون واللسان والمكان والزمان هو أحد وسائل الحصول على الكثير من المنافع المتبادلة بين البشر.

قال تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[١].

لا بدّ من ملاحظة أن هناك فوارق تكوينية عند البشر، وهناك

---

(١) الزخرف: ٣٢.

فوارق إكتسابية غير ذاتية.

فمـا كـان منها من الفوارق التكوينية فمما لا علاقة للإنسان بحصـوله علـيه، ومـن ذلك الفوارق بين الرجل والمرأة، وهي فوارق تستدعي اختلاف قدرات كل منهما واختلاف مسؤولية كل منهما.

وأما الفوارق الكسبية فهي التي سوف تكون مدخلاً لثوابه أو عقابه في الحياة الآخرة.

وقد اعتنى الخطاب القرآني بهذه العلاقة عناية كبرى لما تمثله العلاقـة بـين الـرجل والمـرأة مـن قـاعدة رئيسية في وجود العنصر الإنسـاني، وكذلـك عـن نوعـية هذا الامتداد الناتج عن تناسلهما وتـأثير العلاقـة المـنظمة بيـنهما في توجـيه الفكـر الـناتج من هذا التناسل.

لقـد تـلازم الرجل والمرأة في الخطاب القرآني، تلازماً شديداً مـنذ نشـأة الإنسـان، فحـواء عليها السلام مع آدم عليه السلام مخاطبة بكل تكليف توجـه إليهما من الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

الظَّالِمِينَ﴾[١].

وهما أيضا بمستوى واحد بتحميلهما تلك المسؤولية التي أخرجتهما من الجنة بقوله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[٢].

وأما فيما يتعلق بمسؤولية الرجل منفصلة ومسؤولية المرأة منفصلة فنجد أن تنظيم هذه المسؤولية بينهما وتوضيح مسؤولية كل منهما تجاه الآخر هي الصفة الغالبة في هذا الخطاب[٣]، علما أن هذه العلاقة قائمة على قاعدة أساس لتنظيم هذه العلاقة وهي قوامة الرجل على المرأة.

---

(١) الأعراف: ١٩.

(٢) الأعراف: ٢٠.

(٣) مسؤولية الرجل والمرأة في إطار الحياة هي المسؤولية المشتركة والكبرى ومسؤولية كل منهما تجاه الآخر هي إطار أصغر فيها ولكنها رحى تلك المسؤولية الكبرى والمشتركة.

قال تعالى :

﴿الـرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَـا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَـاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[١].

ومن الواضح أن هذا التفضيل مرتبط بإرادة إلهية تكوينية لا شأن للرجل أو للمرأة به، وكذلك لا علاقة لهذا التفضيل بالجزاء والثواب الأخروي لعدم ارتباطه بإرادة كل منهما.

و تبيان ذلك بما جاء على لسان الشريف المرتضى ﷺ بقوله: ((أنه لا يجوز أن يعذب العباد على طولهم وقصرهم وألوانهم وصورهم، لأن هذه الأمور فعلُه وخلْقُه فيهم))[٢].

إن التاريخ البشري بما فيه من تعدد عقائدي واجتماعي وزمني

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) رسائل العدل والتوحيد، اختيار وتقديم سيف الدين الكاتب: ٢١٥.

بل بكافة ظروفه المختلفة حتى تاريخنا الحاضر يؤكد أن قوامة الرجل على المرأة هي أمرٌ متعلق بالتكوين الرجولي للرجل والتكوين الأنثوي للمرأة وأنه طبيعي لهما، بل لن تستطيع الإرادة الإنسانية تحويل هذه القوامة من جهتها تلك.

إن بنية الرجل باختلافها عن بنية المرأة تعني أن له دوراً في ساحة الحياة، وأن بنية المرأة تعني أن لها دوراً آخراً، وأن اختلاف دور كل منهما عن الآخر ما هو إلاّ تكامل لدور واحد يترشح بحاجتهما لبعض.

فلا إمكان لوجود ذكوري بمفرده، ولا إمكان لوجود أنثوي مستقلاً.

وتتشابه إشكالية التفضيل تلك مع إشكالية وجود إنسان في زمن ووجود إنسان آخر في زمنٍ غيره.

ولكن ما يلاحظ هو أن التعاطي السلبي مع هذه الاختلافات المذكورة كان وما زال لها دور كبير في تأخير المسيرة الإنسانية لما لها من تأثير في فكر الإنسان نتيجة لما يعايشه من واقع تغلغلت فيه هذه الاختلافات وأثّرت في بنيته الاجتماعية والفكرية .

قواعد الدعوة في الخطاب القرآني

لا تخلو أي دعوة من ثوابت ومنطلقات تقوم على أساسها تلك الدعوة، وما هو بيّن وظاهر أن الخطاب القرآني اعتمد قاعدتين انطلق منهما لبناء منهجه الخطابي للمخاطَب وهاتان القاعدتان هما:

* التعقل
* الإرادة

القاعدة الأولى ـ التعقل

من الواضح أن الاختلاف الفكري الممتد عبر القرون لم يبرز للوجود بدون مواجهة قولية تمت بين رأي وآخر.

وقد صاحب هذا الاختلاف تنوعٌ وتعددٌ في أساليب الحوار والمواجهة بين هذه الأطراف، غير أن المنطق العقلي كان أحد الأساليب البارزة في مثل هذه المواجهات حتى بلغ حداً يُعتد به على يد أرسطو[1].

---

(١) أصبح المنطق الارسطي يعرف بالمنطق القديم ، وذلك بعد دخول منطق

ومما يؤسف لـه أن المنطق العقلي تم تغييبه قولاً[١] عن مساحة كـبيرة جـداً من الساحة الفكرية الإسلامية؛ وتم تشريع هذا الغياب مـنذ نشأة الدولة الأموية بتشريع مفهوم الجبر[٢] والقول بخلق أفعال العباد من قبل الله عز وجل.

وبـنظرة مبسـطة جـداً نـرى أن هـذا التغييـب يخالف المنهج

الرياضيات مرحلة متقدمة جداً في القرن العشرين.

(١) لا يمكـن الاعتـبار والتسليم بالجبر من الناحية الفعلية حتى عند القائلين به لـما يترتـب على ذلك من آثار مدمرة على كافة أوجه الحياة الاجتماعية على أقـل تقديـر، حيث إن الاختيار أو الإرادة هي أول القواعد التي يقوم عليها التكليف السماوي للإنسان قبل أي شيء آخر!

(٢) تبـنى الأشـاعرة هـذا القـول وتبنوا تكفير من لم يقل به وقابل ذلك القول بالـتفويض وتبـنى هـذا القـول المعـتزلة ، ويبدو القصد السياسي من هذا القـول لتثبيـت حكـم الأمويـين ونسـبة هـذا التسلط إلى الله وعلى الناس التسليم بذلك.

القـرآني مخالفـة واضـحة بملاحظـة أن القـرآن لا يخاطب المؤمنين به فقط.

فمـا يعـتمد عليه القرآن في مخاطبة المؤمنين به هو إيمان هؤلاء وتسليمهم وتصديقهم برسالة النبيّ محمّد ﷺ وهو مرحلة متأخرة عـند مـن لم يؤمن به بعد، وهذا ما يدعو إلى التأكيد على أن العقل والمنطق العقلي هو الثابت المشترك بين المخاطبين بالدعوة كافة.

إن لكـل رسـالة إعلامـية هدفـاً وموضـوعاً[1] أساسـاً يحملـه خطابهـا تعـبر عنه بأسلوبها وطريقتها، كما أن لكل رسالة إعلامية أخلاقيات نابعة من طبيعة الهدف الذي انطلقت من أجله .

غـير أن الدعـوة القرآنية بالإضافة إلى ذلك لها خاصية تميّزها عن غيرها وهي أنها لم تسخّر ولم تُخضع أخلاقياتها لتحقيق هدفها الأسـاس لغـير منهجها المعلن، بل إن في سياق دعوتها يتضح بجلاء

(١) تأكـيدا لمـا أوضـحنا سـابقاً أن مـا نعـنيه بالموضـوع هنا ليس هو مصداقية الدعـوة القرآنية أو عدمها، وإنما نعني بالموضوع هو موقع الموضوع في تبليغ الدعوة وموقعه في فكر المتلقي.

أن مطابقة أسلوبها مع هدفها الأساس هو أحد مقومات سلامتها وأهدافها وأن هناك اتحاد بينهما لا يمكن تجزئته.

ومن جهة أخرى نرى أن أسلوب الدعوة هو هدف أساس في مضمونه ويتبين لنا ذلك في كثير من الآيات المباركة فمنها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

من هنا يظهر أن الدعوة القرآنية لا تفرق بين المتلقي وآخر مخالف لا يؤمن بمضمونها ما دام أن غاية هذه الدعوة هو الحقيقة والتقوى والقيام بالقسط والعدل وليس الغلبة والانتصار، وأن هذه العناصر ليست مراداً مستقلاً وهدفاً مجرداً عن وسيلة تحقيقها.

وتأخذ الدعوة القرآنية بعداً آخر أعمق في خطابها وهو إدراك المخاطب والمتلقي لمضمون خطابها قبل أخذه بمحتواه للعمل

(١) المائدة: ٨.

بموجبه أو التسليم لمضمونها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(١).

وفي موضع آخر قال تعالى:

﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

قال العلامة الطباطبائي:

((لم ترد أي واحدة من تلك الآيات للإنسان أن يذعن لمرادها من دون سؤال ونقاش، ثم ينصرف بعد ذلك ـ بعد التسليم لمراد الآية ـ لممارسة الاستدلال كضرب من ضروب التفنن أو لأي هدف آخر، بل خاطبت الإنسان بأن ارجع (مختاراً) إلى عقلك السليم، فإن صدق مرادي بما يرافقه من دلائل وشواهد (وسيصدقه جزماً)

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) يونس: ١٦.

فاقبله))[١].

إن التعقل والإدراك في الدعوة القرآنية هو العماد والمنطلق الأول.

ولذلك دلالة لطيفة جداً وهو أن المتلقي هو من يمتلك المعايير والمقاييس التي تحدد مصداقية أي دعوة من بطلانها، وهي التي تسلمه مفاتيح توجهه وترشده إلى ذلك، وهذا ما يخالف كلياً كل رسالة إعلامية مخالفة هدفها استمالة المتلقي وجذبه إلى جانبها بدون مراعاة لإدراكه وتعقله.

ولذلك أيضاً دلالة أخرى وهي أن الموضوع مدار الدعوة القرآنية لا غموض فيه وليس بعيداً عن فهم المتلقي بما يمتلكه من عقل، بل إن مداره هو موضوع الفطرة والوجدان .

قال الشيخ الكواكبي:

((إنّ الناظر في القرآن حق النظر يرى أنه لا يكلف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل، بل ينهاه من الإيمان اتباعاً لرأي

(١) رسالة التشيع ، العلامة محمد حسين الطباطبائي: ٦٦.

الغير أو تقليدا للآباء))[١].

وترتقي الدعوة القرآنية بالمتلقي لتضعه موضع الند للند وتعرّفه كافة وسائل الدفاع والمواجهة قبل البدء في حواره فالمتلقي هنا إذن ليس في موقف الضعف والجهل.

وتأكيداً على هذا المنهج والأسلوب ترفض الدعوة والرسالة القرآنية حتى التسليم بمضمونها بدون إدراك أو فهم.

قال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

يتأكد لنا بعد هذا كلّه أن إدراك وفهم وتعقّل المتلقي هو قاعدة أصيلة في الدعوة القرآنية، فهي لا تكتفي بتسليم المتلقي

---

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الشيخ عبدالرحمن الكواكبي: ٩٩.

(٢) النجم: ٢٨.

(٣) التوبة: ٦.

بدون هذه القاعدة.

فمما سبق نستنتج من الدعوة القرآنية الآتي:

* أن الاعتبار هو إدراك المتلقي وفهمه لمضمون الدعوة القرآنية.

* عدم صلاحية غير اليقين لإصدار الأحكام اليقينية والعمل بها لما يتعلّق بالاعتقاد[١].

---

(١) ذكر الشهيد مطهري في كتابه التعرف على القرآن: ٩٧ أن مواطن أخطاء الاستدلال العقلي من وجهة نظر القرآن تنحصر في الظن والتقليد واتباع الهوى، وما نراه هو أن التقليد ـ المعني هنا ـ ليس كذلك بل إنه تنازل عن الإرادة أو الاستسلام لإرادة الآخرين، فهنا قضية مانعة خلو، فهو إما تقليد نتيجة تفكير واقتناع أو تقليد بدون تفكير واقتناع، فإن كان نتيجة تفكير واقتناع فهو ليس تقليداً بل توافق مع قناعة الآخرين، وإن كان بدونهما فليس هناك عملية تفكير ليقال إن هناك خطأ عقلياً قد وقع فيه الإنسان. وبصورة أخرى لا يصح إطلاق التقليد على ما عمل به الإنسان نتيجة

* عدم الفصل بين مضمون الدعوة القرآنية وأدوات تبليغها المقررة.

* أن للمتلقي في الدعوة القرآنية حقوقاً معمولاً بها ومحفوظة له حتى لو تنازل هو عنها.

القاعدة الثانية ـ الإرادة

قبل عصر الدعوة كان الرق يشكل عاملاً أساسياً في اقتصاد الناس في كافة المناطق، وكانت الجزيرة العربية تشكل تفاوتاً اجتماعياً ملحوظاً مبتنياً على هذا التفاوت.

غير أن هذا الرق كان يشكل العامل المشترك بين هذه المجتمعات على كبير اختلافها، فهناك المجتمع الزراعي كما في يثرب والطائف، وهناك المجتمع التجاري كما في مكة، وهناك المجتمع

⮕

تفكير واقتناع بالنتيجة التي توصّل إليها، وكذلك لا يجوز إطلاق تقليد على ما نتج عن عملية تفكّر أدّت إلى التوافق مع قناعة الآخرين.

البدوي القائم على الرعي والتنقل بين المناطق لأجل ذلك في الصحراء الممتدة بين حواضرها.

وعلى ذلك تحرك الملأ من الناس والمستكبرين منهم لمواجهة الدعوة القرآنية، حيث إن هذه النظم الاجتماعية والرق تشكل العصب الرئيس في تجارتهم وأعمالهم، بل إن هؤلاء الملأ لا يباشرون أي عمل غير الحرب والإغارة في ساحاتها [١] وهذه لم تخلُ من العبيد أيضاً!

ولقد اجتهد أعداء الدعوة منذ انطلاقها في سبيل إطفاء شعلتها، واستخدموا كافة الحيل والمكائد لكي لا تصل إلى عامة الناس وعزلها عنهم أو عزلهم عنها، فلم يدّخروا ما وسعتهم حيلهم وطاقاتهم إلاّ وعملوا به من أجل ذلك، وكان من ذلك أن رموا النبي ﷺ بالجنون والسحر، وكل ذلك من أجل صرف أذهان

---

(١) إن في تسمية بعض الشهور العربية دلالة مهمة جداً لما تمثله الغزوات والحروب في ثقافات وبنية تلك المجتمعات قبل انتشار الدعوة الإسلامية.

الناس عن موضوع الدعوة القرآنية ولمنع وصول العقول إلى حقيقتها!

فقد تبيّن لنا فشل هؤلاء في كل ذلك، واستطاعت الدعوة اختراق كل تلك الحواجز لما يمثله مضمون الدعوة للفطرة الإنسانية التي كبلتها تلك العبودية بالنسبة لمن هم في أغلال الرق ولما يعني مضمون الدعوة القرآنية لمن تغلبت عليه إرادة المستكبرين بعادات تلك المجتمعات، غير أن عدداً من الأفراد لم يجد لهذه الدعوة طريقاً في نفسه، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾(١).

إن هذه الدعوة في الآية المباركة لتفكيك الوحدة الفكرية التي تأسست باجتماعهم على غير الحق لدى هؤلاء إنما أتت لتدفعهم وتقربهم إلى ساحة الإرادة المسلوبة، حيث إن تكتلهم على تلك الأسس سوف يبقى حاجزاً ومانعاً صلداً يحجبهم عن التمسك

---

(١) سبأ: ٤٦.

بعنان هذه الإرادة.

كذلك لإخراجهم من دائرة الضغوط التي تتسلط على الفرد عندما يكون صفر اليدين من هذه الإرادة والاستقلالية باتخاذ القرار السليم، وهذا مما يستشعره الإنسان ـ أي الضغوط الاجتماعية ـ في الفعل الفردي بموازاة الفعل الاجتماعي عبر التاريخ.

ولا يجب أن نغفل عن تعلّق هذا التفكيك بالتفكير المستقل وارتباطه به في ما هو معروض في الخطاب القرآني السابق ودفع تلك التهمة الباطلة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

وما من شك في أن دفع الضرر عند الإنسان أكثر تحفيزاً للتفكير وأكثر عمقاً مما لو كان الأمر لجلب مصلحة ما، فكان الإنذار والتخويف من العذاب ملازماً لهذه الدعوة، ولما للخوف من دور في البحث عن الأمان الذي لن تجده النفوس في غير طلب الحق، وقد قرّر الله سبحانه تلك الحقيقة في الإنسان حيث قال : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ (١).

---

(١) المعارج: ٢٠.

وبما اتضح لنا من ذلك يتبين أن الإرادة هي تمثل الإنسان أمام الحق سبحانه بل هي حقيقته الكاملة بما تُجسده من أفعال وأقوال، فما هو الإنسان إذن حين يتحرك مسلوباً من إرادته تلك، وماذا يعني قوله وفعله حين صدورهما عنه بدونها..؟

وقد ضرب مجدد الفلسفة الإسلامية الفيلسوف صدر الدين الشيرازي مثالاً مناسباً يتناسب مع هذا المقام فقال :

((مثال البنية الإنسانية في هذا العالم مثال السفينة المحكمة الآلة في البحر بما فيها القوى النفسانية، والجنود العمّالة فيها المسخرة بإذن الله المرتبة في أمر هذه السفينة المصلحة بحالها، فإن سفينة البدن لا يتيسر السير بها إلى الجهات إلاّ بهبوب رياح، فإذا سكنت الريح سكنت ووقفت السفينة))(١)

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا

---

(١) الحكمة المتعالية ، صدر الدين الشيرازي ٩: ٥٤ ، دار إحياء التراث ـ بيروت.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

إنّ هذه الحواس المعطّلة لا ثمرة منها على الإطلاق، بل إن عدم الاستفادة منها مع إمكانية ذلك هو ما جعل الأنعام أرقى منزلة من صاحبها، كالقلوب التي لا تفقه والأعين التي لا ترى والآذان التي لا تسمع، فهي ليست معطوبة أو غير صالحة لأداء وظيفتها العضوية، بل إن كل ما في الأمر أنها تعطلت بإرادة صاحبها، وهذا ناتج عن أحد أمرين هما :

١ ـ إمّا أن هذه الإرادة تعمل بخلاف إرادة الحق سبحانه وهذا هو الاستكبار.

٢ ـ أو أن هذه الإرادة مسلوبة ولا قدرة لها أمام سلطة وإرادة الآخرين الذين يعملون بخلاف الفطرة وهذا هو الاستضعاف.

إنّ هذا الحصر يأتي على اعتبار أن تهمة الجنون أو السحر أو كل التهم الباطلة الموجهة لشخص الرسول ﷺ باطلة وغير

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

صحيحة بعلم حتى من الذي أطلقها، وقد ثبت أن الفريق الأول من هذين الصنفين إنما ساق هذه التهم للحفاظ على مصالحه الذاتية، وأن التسلط وحب الشهوات كان محركهم الأساس لمواجهة الدعوة.

وحيث إنه ليس كل من لم يؤمن بالدعوة القرآنية كان من المستكبرين ـ أي أصحاب النفوذ والسلطان ـ بل إن فيهم من هو من المستضعفين أيضاً فهم الصنف الثاني وهم من استسلمت إرادتهم لغيرهم.

ولتأكيد القرآن على عدم التنازل عن هذه الإرادة يستعرض البيان القرآني مقولة أمثال هؤلاء ويرد ذلك المبرر النفسي الذي أوقعوا أنفسهم فيه بعدم حجيته حيث قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [(١)].

(١) النساء: ٩٧.

ويدور هذا الحوار بينهم ولكن بعد فوات الأوان بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ (١).

وحتى يتحقق الإنسان من عدم إمكانيته بالاستقلال عن الله سبحانه يتأكد الخطاب القرآني بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٢).

بهذا يتبين أن الإرادة أو الاختيار الحر عند الإنسان هو ما يتناسب عقلاً مع مبدأ الثواب والعقاب ـ المعاد ـ الذي قامت عليه الدعوة القرآنية في خطابها، وهذا ما يتفق أيضاً مع مبدأ العدل وينسجم أيضاً مع الحكمة ـ عدم العبثية ـ في الخلق والتكليف التي أكدها الباري عز وجل في كثير من آياته البينات .

---

(١) غافر: ٤٧.

(٢) ق: ١٦.

الاستكبار والاستضعاف في مقابل التعقل والإرادة

تلازم الاستكبار والاستضعاف في الخطاب القرآني كثيراً وهما صفتان نفسيتان في الإنسان، كما أن لهما انعكاساً وتأثيراً في كل تصرفات الإنسان .

فما ظهر من مستلزمات الاستكبار في البيان القرآني هو أن هؤلاء المستكبرين هم من كانوا يوجّهون عملية التفكير للآخرين ويفرضونه عليهم في أحيانٍ أخرى وهم من كانوا يمسكون بزمام الجدال والحوار مع الأنبياء والرسل في مقابل البراهين العقلية التي تُعرض على الناس .

قال تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ٧٥.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [١].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [٢].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٣].

إننا نجد في هذه الآيات صورة بليغة عن نظرة هؤلاء المستكبرين لأنفسهم وما يرونه في أنفسهم من مكانة تؤهلهم

---

(١) الأعراف: ٨٨.

(٢) الفرقان: ٢١.

(٣) سبأ: ٣١.

للحديث وكأنهم هم من يقوم بعملية التفكير نيابة عن الآخرين وإصدار الأحكام عنهم، وان ليس من حق الآخرين التفكير وإصدار الأحكام!

فكيف كانت وجهة الخطاب القرآني تجاه من اتصفوا بهاتين الصفتين؟.

لعل تاريخ وجود صفة الاستكبار هو أول ما يلفت نظر الباحث في الخطاب القرآني، ولعل من الأهمية عدم إغفال هذا الجانب ـ الوجود التاريخي ـ حول هذه الصفة المذمومة، وهذا أول دليل على اقتران الحرية والإرادة عند المكلفين بالأوامر الإلهية مما يدحض حجة القائلين بالجبر، فمما لا شك فيه أن الإرادة الإلهية لا تريد ولا تقبل الاستكبار من العباد .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

---

(١) البقرة: ٣٤.

لقد اجتمع وتمحور في هذه الآية المباركة دورة متكاملة من الوجود التكويني والتشريعي، فهناك الخالق الواحد وتمثل بمصدر الأمر، وهناك المخلوقات المتعددة والمتنوعة وتمثل بالملائكة وآدم وإبليس، وهناك عالم الملك والملكوت وتمثل بمن له حق الأمر وله حق الخضوع من الغير، وهناك المنازل العالية وتمثل بالطاعة والامتثال المباشر من الملائكة، وهناك الانحطاط بالمعصية والاستكبار وتمثل بمعصية إبليس، وهناك الإرادة الإلهية التشريعية وتمثلت بصدور الأمر بالسجود والخضوع، وهناك الاختيار للمكلّف وتمثل باختلاف إرادة الملائكة عن إرادة إبليس، وهناك المصير المحتوم والمرتبط بتنفيذ أمر التكليف وتمثل بصدور الحكم الإلهي على إبليس.

والملفت في ذلك كله هو دور الاستكبار في هذه الدورة وخطورته في ذلك، كما أن هناك تنبيهات ونكات تبرز وتؤكد خطورة الاتصاف بالاستكبار، وتتمثل هذه الدورة المتكاملة بالآتي:

أولا ـ الجانب التكويني

١ـ إن مصدر الوجود هو الله سبحانه وذلك أن مدار الآية هو

خلق الله سبحانه للإنسان.

٢ـ إن هناك وجوداً لنوعين آخرين غير الإنسان، وهما الملائكة وإبليس، ويمثلان بمنزلتهما المعنوية منازل الترقي أو الانحطاط في مسيرة الإنسان.

٣ـ إن هناك إرادة حرة للمكلفين، سوف تحدد مصير صاحبها، وأن الله عز وجل لا يمقت ما خلقه هو، وتمثلت بطاعة الملائكة ومعصية إبليس.

٤ـ إن قابلية الوجود بالغير تدل على قابلية العدم بالغير، وتعني كمال الدورة التكوينية.

ثانيا ـ الجانب التشريعي

١ـ إن التكريم الإلهي تجلى للإنسان بأوضح صورة بإصدار الأمر للملائكة بالسجود لهذا المخلوق .

٢ـ إن هناك تناسباً بين التكليف والقدرة على التنفيذ عند المكلَّف.

٣ـ إن إبليس هو الذي لم يقبل بهذا التكريم ولم يرض به مع

استمراره لهذا الرفض.

٤ـ إن هناك نزعات نفسية قد تكون هي المانع عن الخضوع والطاعة كما هو الاستكبار.

٥ـ إن مصير العاصي والممتنع عن طاعة الخالق هو المقت والعياذ بالله من ذلك.

إن هذا الحشد الهائل من المفاهيم والمعاني ليس مستعصياً على كافة المستويات الفكرية، فمثل هذا البيان الإعجازي مبسوط للفطرة الإنسانية، فبما تمتلكه من قدرة تستطيع أن تستشف أثر هذا الاستكبار على السلوك ليتكون لديها تجاه هذا المفهوم ـ الاستكبار ـ نفور طبيعي في داخلها منه.

ولتوجيه الإنسان للحصانة من هذا الداء الخطير، شخّص الخطاب القرآني مصدره وأشار إلى أن ليس للاستكبار عواملُ خارجية بعكس الاستضعاف، بل إنها ذاتية بحتة، أي لا وجود لأي قوة خارجية له[١] قال تعالى: ﴿**لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا**

(١) يشار هنا إلى أن متعلقات هذا الاستكبار خارجية مثل حب الدنيا وغيرها

عُتُوّاً كَبِيراً﴾ (١).

وأما السبب الرئيسي لهذا الاستكبار إنما هو الركون إلى القدرة الذاتية وهذا ما نستظهره من معنى كلمة استكبر، حيث إن فاعله ـ أي المستكبر ـ ظنّ أنّ كلّ شيء دونه وتناسى حتى قدرة الله عزّ وجلّ.

كما أن اقتران ذكر هذه الصفة بالامتناع عن تنفيذ أبلغ مظهر تعبدي للحق سبحانه إضاءة توجب للعقل والروح المستهدية أن تعي وتدرك أثر هذه الصفة على سلوك الإنسان وما هو حدّ هذا التأثير عليه!



ولكنها لا تعتبر دوافع خارجية إذا نظرنا إلى أن منطلقها هو هوى الإنسان، لذا اعتبر علماء الأخلاق أن علاج ذلك هو من داخل الإنسان عن طريق تصحيح علاقته بها وبناء تلك العلاقات معها على أسس لا تتعارض مع محدودية هذه العلاقة وغير محدودية أثرها أي امتداد واستمرار أثر تلك العلاقة .

(١) الفرقان: من الآية ٢١.

أدوات الخطاب

لكل خطاب أو دعوة أدوات يتناسب استخدامها مع الظروف المحيطة والمناسبة، وذلك لاختلاف المستويات بين متلقٍ وآخر.

فمن غير المعقول التعامل مع هذه الاختلافات بمستوى واحد من الخطاب أو بأسلوب واحد.

فهناك خطاب مباشر وغير مباشر وهناك وصف وإشارة وهناك مدح وذم وهناك إرشاد ونهي وغيرها ونشير هنا إلى بعض هذه المستويات في الخطاب القرآني.

فهناك العالم الجاحد، وهناك الجاهل المصدّق، وبين هذين المرتبتين مستويات متعددة، أخذ الخطاب القرآني الحسبان في خطابهم، ونؤكد أيضاً أن هذه المستويات تنطوي على مستويات متفاوتة بدرجة أعمق وأدق، ولسنا نعني فيما سنذكره حصراً لها.

فهناك الشدة في القول، وتختلف هذه الشدة من موقع لآخر ومن جهة إلى أخرى، وهناك الحكمة وهناك الجدل بالحسنى وهناك

الترغيب والترهيب، على ذلك يتضح أن هناك مستويات متعددة في الخطاب القرآني وأنه ليس بمستوى واحد وهذه المستويات هي:

١ ـ ما يناسب الجحود للمنطق العقلي.

٢ ـ ما يناسب العاملين بحكم مخالف للمنطق العقلي.

٣ ـ ما يناسب العاملين بحجب المعلومات العقلية.

٤ ـ ما يناسب المنافقين.

٥ ـ ما يناسب العاملين لاكتساب المثالية.

أما ما يلاحظ في ذلك هو تلك الوحدة البيانية أو الانسجام التام بينها مع اختلاف المستويات الخطابية الصادرة لهذه الفئات، وأن هذا الاختلاف لا يبدو منه غير وحدة المصدر وأن هناك انسجاماً واضحاً بين هذا الاختلاف في البيان القرآني حتى مع تداخلها في الآيات ببعضها.

وأذكر هنا مرة أخرى أن متلقي هذا الخطاب منقسمون إلى غير مؤمنين[١] بهذا الخطاب ومؤمنين، فما يتعلق بالقسم الأول ففيه

---

(١) نذكّر هنا مرة أخرى بما جاء في حاشية هذا الكتاب، ص٨٥: بأنه لا يمكن لنا ←

مستويات متعددة ومتفاوته كالتالي :

القسم الأول (غير المؤمنين):

المستوى الأول

ما تبين أن الخطاب القرآني المباشر مع الجاحدين معدوم، ولا تجد في آيات القرآن الكريم حواراً مباشراً أو غير مباشر مع هذه الفئة.

ولا يعني ذلك عدم التعرّض لهذا النوع من الإنكار أو التعريف بحالهم في الدنيا والآخرة فقد اقترن ذكرهم بالظلم والإفساد والتكبر والكفر والخلود في النار.



الخروج من الثنائية المنطقية التي انتقدها المفكر محمد أركون في نقده للفكر الإسلامي المعاصر ، حيث إن العقلانية هي التي تستوجب عدم إمكانية إضافة فئة ثالثة لهاتين الفئتين المتوجه لهما الخطاب القرآني أي مؤمنين أو غير مؤمنين.

وكل ذلك لعدم استناد جحودهم وإنكارهم على منطق فكري أو أي حجة باطلة كانت أو صحيحة، ولم يظهر منهم أي بيان لسبب هذا الجحود والنكران لآيات الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

وفي آية أخرى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٢).

ولا يعني أن اقتران مثل تلك الأوصاف بهذه الفئة عدم انطباقها منفردة على غيرهم، بل إن هذه المرتبة من الإنكار

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) الأحقاف: ٢٦.

استدعت اجتماع كل هذه الصفات بهم.

ولعل إلغاءهم لدور العقل مع ما مكّنهم الله فيه واستمتاعهم بنعمة البصر وبنعمة السمع وبنعمة الفؤاد وهذه هي وسائل اكتساب المعرفة، إن ذلك هو ما استدعى تجاهل حوارهم ولانعدام الفائدة المرجوة من ذلك وهم متمسكون بهذا الجحود والعناد وثباتهم على هذا الموقف، فهم ليسوا مجرد غافلين.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[١].

فعن سبق إصرار وعناد منهم انغمسوا في لذائذهم الدنيوية وغرتهم الحياة الدنيا، وبتعمدهم لمثل هذه الممارسات نسوا لقاء الله واليوم الآخر، وكل ذلك نتيجة لهذا الجحود.

---

(١) الأعراف: ٥١.

إن ما يعنيه إطلاق هذه المصطلحات واجتماعها في هذه الفئة وهي أسوأ المصطلحات التي ورد ذكرها في القرآن الحكيم، وإن ما يعنيه ذلك كله هو أن إلغاء دور العقل وما له من تأثير في حركة الإنسان سوف يجعله بعيداً عن دائرة الهدى والتوجيه والإرشاد، ولما تحمله هذه النفوس من انحطاط في ذواتها، جاء وصفهم بالأنعام بل هم أضل!

لذلك تم تجاهلهم ولم يتوجه الخطاب مباشرة لهذه الفئة وإنما توجّه لغيرهم لكي يعتبروا بذلك.

المستوى الثاني:

وهو ما يتعلق بمن أصدر حكمه على أسس تخالف المنطق العقلي، وأدوات هذا المستوى مما يتناسب مع ما يخالف المعارف العقلية الأساسية التي تقوم بها كافة المعارف الإنسانية، ولما للاتّباع من أهمية قصوى في مصير الإنسان تلألأت مضامين هذه الآية في قلوب من أراد الحقيقة وانثال عليها عشقاً، ولما يشكله الاتّباع من تأثير في حاضر الإنسان حين مواجهة أحداث الحياة عموماً وفي مستقبله حتى انتقاله إلى الدار الآخرة.

قال تعالى:

﴿قُـلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إلى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إلى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

إن هـذا التقريع الوارد هنا يتناسب مع هذا الخلاف للمنطق العقلـي بخصـوص تجنـب الأولويـة بهذا الاتّباع، فلم يكن كفرهم مورداً لهذا التقريع والاحتجاج بقدر ما كان هذا التقريع والاحتجاج متجهاً ومنصبّاً إلى العملـية الـتي تم بها إصدار حكمهم فيها، وأن هـناك شـيئاً آخـر غـير الشرك بالله استلزم استحقاقهم لهذا التقريع ولكـون هـذا الإيمـان يـأتي في مـرحلة لاحقـة لهذا الاتّباع فلا يجوز تقـريعهم في مـرحلة سـابقة لـه، فلا بد من أن هذا التقريع قد وقع لأمـر سـابقَ على ما هو مطلوب منهم وهو غير تسليمهم بالعبودية لأنفسـهم وتسـليمهم بالربوبية لغيرهم وتسليمهم بوجوب الطاعة

(١) يونس: ٣٥.

والاتّباع للاهتداء لإقرارهم بذلك كله وهو ما أثبتته لهم الآية المباركة، حيث إنهم أقروا بالاتّباع لغرض الاهتداء غير أن تشخيصهم لجهة الاتّباع خالف المنطق العقلي لذلك.

قال تعالى:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١].

وفي إشارة لطيفة يبدو هنا تمييز بين قسمين من الناس استحق المسلمون المدح بإسلامهم واستحق المجرمون الذم بجرمهم، وتوجّه التوبيخ بقوة وعنف لمثل هذه المساواة لفريق ثالث بدون وصمه بهذه الجريمة مباشرة لكون هذا الفريق هو المخاطب مباشرة بذلك، ولكونهم لا زالوا في مرحلة الحوار.

إذن هناك دعوة لهذه الفئة بأن قواعد التفكّر التي تمارس من قبلهم مغلوطة ويجب تصحيحها، وأن الثبات على هذا الموقف هو

---

(١) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

خطأ كبير، وأن هذا الأسلوب في إصدار الأحكام لا تصل بالإنسان إلى حكم صحيح أبداً.

ويلاحظ من خلال الجانب التاريخي لهذا المستوى من الخطاب علاقته الوثيقة بالفترة المكية من الدعوة، وهو ما يتناسب مع تاريخ بدء الدعوة وظهور الرسالة .

ومع استمرارية وديمومة هذا الخطاب، يتأكّد الدور الأهم للعقل في بناء الثقافة والفكر في الخطاب القرآني .

المستوى الثالث:

وهو مما يتعلق بمن لم يُعمل عقله في ما يمتلك من معارف وحقائق، أو لم يستثمر مثل هذه المعارف وكان بين تجاذبات واسقاطات تلك المعارف السابقة وتأثيرات عوامل خارجية أو ذاتية كالخضوع لسلطة الآباء والمجتمع أو سلطة الهوى، فكان في مرحلة عدم اتخاذ قرار فيما يعرض عليه.

فكل تجربة تمر على الإنسان تترك لديه مزيداً من المعرفة، كما أنها تكسبه ما يتوجّب عليه الاستفادة منها وتنتقل به إلى مرتبة يتفوق بها على نفسه قبل تلك التجربة.

يتمثل لنا بهذا أهمية دور المصدر الثالث من مصادر المعرفة التي يسلّم بها أصحاب الفكر على اختلاف مذاهبهم، ألا وهي التجربة.

قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1].

فعندما يتنكّر الإنسان إلى ما يمتلكه من معرفة ومعلومات اكتسبها بالتجربة عبر حياته، ولكون التجربة لا تصل إلى مرحلة اليقين فإن الشك والريب لا يزالان يحتبسان في صدور أصحابهما، وهي حالة مرضية تحتاج إلى علاج، ولم يخرج صاحبها إلى حيز القدرة على إصدار حكم على ما يعرضه له الخطاب القرآني.

فسوف تبقى هناك معابر إلى أغوار نفسه ربما تقود إلى الوصول إلى موانع تسليمه لمضمون الدعوة لإزالتها، ثم يعود بزوالها إلى بصيرته وفطرته.

---

(١) يونس: ١٦.

ولعل التفكّر في كل من التجربة الذاتية وتجارب الآخرين السابقة من أهم الوسائل التي استثمرها الخطاب القرآني في دفع الكثير من الشبهات والشكوك من صدور أصحابها، وتم تحويل مثل هذه التجارب إلى عوامل اجتاز بها أصحابها عدم الاستقرار إلى شاطئ الاستقرار والطمأنينة مما حفز الإنسان على عدم الوقوع بأخطاء الأمم السابقة، واكتساب الخبرة الاجتماعية منها.

فهل من الممكن الاستفادة من مثل هذه التجارب بدون اقترانها بعملية التفكير وإخضاعها للمنطق العقلي وتحت سلطة المعارف الأساسية التي يمتلكها الإنسان؟

إن الدعوة القرآنية بمثل هذا البيان الصريح والشامل لتوجيه الإنسان إلى كيفية الاستفادة من التجربة وتحليلها فإنما تبين له مصدراً من مصادره المعرفية التي يجب أن يؤكدها في قراره وحركته.

قال تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٣٧.

إن استقراء التجارب التاريخية السابقة والمتماثلة بالموضوع توجب على صاحب الدعوة المضادة تقديم ما يمتلكه من أدلة وبراهين على صحة ادعائه إن كان يحرص فعلاً على إصدار الحكم الصحيح.

المستوى الرابع:

هناك شيء مشترك بين مستويات الفئات الثلاث السابقة وهو عدم الاستجابة وعدم التسليم للدعوة، وبمعنى آخر أن هذا الرفض واضح وبيّن من خلال النصوص الاعتراضية التي ساقتها الآيات القرآنية على ألسنتهم مع ملاحظة مستوى الرفض بينهم.

أما فئة المستوى الرابع وهم المنافقون فقد اشتركوا مع كافة هؤلاء من وجه واختلفوا عن هؤلاء بوجوه أخرى.

أما اشتراكهم مع تلك الفئات فكان في عدم التسليم وعدم الاستجابة للدعوة بقلوبهم وأنهم تعلقوا بتلك المشاريع المخالفة لمشروع الدعوة، بل إن محاربة الدعوة من موقع أقرب لها هو ما جعلهم يمثلون هذا الخطر .

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢).

وأما اختلافهم عن تلك الفئات السابقة فقد كان في الظاهر فقط، وهو التسليم والاستجابة باللسان فقط، بل نجد هناك إلحاحاً وتأكيداً منهم على هذا التسليم اللفظي بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾(٣).

وهناك جهة اختلاف أخرى عن تلك الفئات وهو تغلغلهم بين المسلمين مما يحتاج تصنيفاً لهم وتمييزاً في الخطاب، وأن هناك

---

(١) الفتح: ٦.

(٢) التوبة: ٧٣.

(٣) المنافقون: ١.

حاجة لوقاية جسم المجتمع الذي يعيشون فيه من خطورة جغرافيتهم تلك.

وتعبيراً عن هذه الخطورة من المنافقين على المسلمين قال سيد قطب ما يلي:

((إنّ لهـذه القـوى اليوم في انحاء العالم الإسلامي جيشاً جراراً مـن العمـلاء في صـورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين ـ وأحياناً كـتّاب وشـعراء وفـنانين وصـحفيين ـ يحملون أسماء المسلمين لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ! وبعضهم من (علماء) المسلمين))(١)

عـلى ذلـك كـان الخطاب عن هذه الفئة غير مباشر لهم أيضاً وهو ما اتسم بالتهديد والوعيد مع فضح طريقة تصرفهم وتفكيرهم ونفسيتهم خلال احتكاكهم بالمسلمين.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ

---

(١) كتاب في ظلال القرآن، سيّد قطب ١: ٤١٥.

كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

وبدون استثناء لقد اتخذت التجمعات الإنسانية منذ القدم مواقف متشدّدة جداً حيال كل من عمل ضد مكونات تجمعها في أوساطها محاولاً القضاء على أصل ذلك التجمع .

ولعدم الاختلاف مع مثل هذه الفئة المخاطبة بشأن الدار الآخرة في هذه الآية- حسب ادعائهم- ينتقل الخطاب إلى منطق آخر ولكنه يستند لقاعدة عقلية أيضاً، وهو منطق الصدق مقابل منطق الكذب، وسوف يلامس الخطاب القرآني نفسية هذه الفئة مباشرة باعتبار أن هذه الدار هي في مقام رغبة لمن عمل لها فقط بمعزل عن الآخرة، ألا وهي تمني الموت، فلا حاجة لكسب المؤيدين لها من الآخرين، وما حاجة الآخرين لبيان هذه الحقيقة النفسية ما دامت هذه القناعة حقيقة لا ريب فيها بمعتقد صاحبها.

---

(١) المنافقون: ٤.

والأهم من ذلك كلّه هو نقل هذا الخطاب إلى عقلية المتلقي لتكون هي ساحةً لهذا الجدل، وليبعث مثل هذا التساؤل إلى المتلقي بدل أن يكون مجرد تجاذبات لا طائل منها.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١].

يتعرض الإنسان إلى كثير من الأزمات وربما يستطيع الخروج منها ولكنه مع كل ذلك يحمل آثارها، وتفعل به مفاعيلها المؤثرة، ولكن أسوأ الأزمات هي التي لم تكن في حسبانه، وتتعاظم هذه الآثار بتعاظم الأزمة نفسها.

فكيف لو كان ذلك هو عذاب الله وهو ليس بعيد التوقّع حتى عند من لم يؤمن به، مثل ما حدث لكثير من الأمم السابقة .!

وإن كان هذا الاحتمال وارداً لكل فرد متمثلاً بالانتقال إلى

---

(١) الفتح: ٦.

الـدار الآخـرة ـ وهـو حـق الـيقين ـ، فمـن الـسـفاهة أيضـاً عـدم الاستعداد لمثل ذلك الأمر الخطير.

وتعتـبر هـذه المرحلة مـن الاحـتجاج تتعلق بما اختزنه فكر الإنسـان مـن تجارب سـابقة ومعلومـات اكتسبها من التجربة بعد مواجهتها في واقعه .

بهـذا نكـون استكملنا استعراض مستويات القسم الأول وهم غير المؤمـنين بالخطـاب القـرآني وفـيما يلي نـستعرض مستويات القسم الـثاني مـن الخطـاب القـرآني نذكّـر هـنا إلى أمر مهم جداً وهو أن مستوى هذا الخطاب وهم المؤمنين كالتالي:

القسم الثاني (المؤمنون):

المستوى الأول:

لا يمكـن فصل الدعوة القرآنية عن الصورة المثالية المحددة في بـيانها، غير أن هذه المثالية في الدعوة القرآنية هي الوحيدة فوق كل مثالية عرضتها الدعوات الأخرى .

فـبعد أن تجـاوزت الدعوة القرآنية مراحل مهمة لدى المتلقي

أوضحت له ما هو مطلوب منه وتلك المراحل التي تجاوزها هي:

١ـ التسليم بالمعارف الأولية التي تقوم عليها كافة المعارف الاكتسابية الأخرى.

٢ـ التسليم والإقرار بصدق الدعوة وما تحملها.

٣ـ التسليم بأن العمل خلاف الدعوة هو الخسارة المحتومة للحياة الآخرة.

ولا شك أن تسليم المتلقي بهذه الأمور هو بالنتيجة إقرار بعبوديته لله سبحانه وتعالى ومن هنا نستطيع الربط بين المغفرة التي وعد اللهُ سبحانه وتعالى عباده ـ دون المشركين منهم ـ لما لهذا الإقرار من أهمية في سلوك الإنسان ومستقبله ولما لهذا من تأثير في علاقته مع الآخرين.

بعد تجاوز هذه المراحل وجب على الدعوة توضيح سبل نجاة المتلقي وإرشاده إلى سبيل النجاة والخلاص.

ولتوضيح منعطفات هذا السبيل نستوضح ذلك بالآتي:

من خلال تاريخ الدعوة القرآنية التي امتدت منذ البعثة

النبوية الشريفة وخلال ثلاثة وعشرين عاماً، ومن خلال نزول الآيات التي اختلفت ظروف نزولها على الرسول الأكرم ﷺ لم تكن صورة الإنسان المثالية في الدعوة تختلف في مرحلة دون أخرى، أو أنها كانت في مراحل الدعوة الأولى في مكة المكرمة ـ حين لم تكن هناك دولة إسلامية ـ لم تكن تلك المثالية أقل مستوى من المثالية المنشودة بعد بلوغ الدولة الإسلامية أوجَ عظمتها، فالمثالية المطلوبة هنا هي المثالية المطلوبة هناك والعكس صحيح.

إن للظروف المحيطة بكل دعوة تأثيراً على بيان أهداف كل دعوة، فحين تكون الظروف المحيطة مأمونة نجد أن الأهداف والطموح واضحة أكثر ولكنها تنخفض وتقل عند اشتداد الأمور عليها.

إن الدعوات الإعلامية غير القرآنية لا تتجاوز هذا المنهج وذلك لمحدودية أهدافها وهذا متعلق بأمرين هما:

ارتباط هذه الدعوات بأفراد وارتباط مشروعية أو صلاحية أهدافها برحيلهم.

تحقيق هذه الأهداف وتطبيقها على أرض الواقع من قبل أتباعها بحسب ما هو معلن أي الالتزام التام بما هو مكتوب ومقرر ضمن مشروع هذه الدعوة أو تلك!

أما في الدعوة القرآنية فلا حدود لهذه المثالية المطلوبة في الإنسان أبداً، فهي تبدأ من موقع الإنسانية ولكنها لا تنتهي فيه، وهذا يعني أن الصورة المثالية ظاهرة ومستبينة للمتلقي ومطلوب منه السعي لتحقيقها في كل ظروف الدعوة القرآنية، وذلك لعدم ارتباطها بغير المطلق الحق سبحانه وتعالى.

فهل هذا محال على الطبيعة البشرية وهي المحدودة في مكوناتها؟

إن ما يوحي به هذا السؤال ليس تعجيزاً عن بلوغ المثالية وتحقيقها على أفراد البشر، بل إن ذلك في واقعه إنما يمثل دعوة لبناء الذات الإنسانية بمساعدة عوامل غيبية لا تدركها حواس الإنسان المادية ولا تملك حتى مفاتيح التقرب منها وهي منصرفة عن طلب تلك المثالية.

فلكي تتحول الحواس والأجهزة التي يمتلكها الإنسان إلى

آلات إنسانية تساهم في تحقيق تلك المثالية أوضح الخطاب القرآني جانباً مهماً في تلك المسألة ألا وهي مسألة الإرادة والفعل ودورهما في توجيه كل ما يمتلكه الإنسان بهذا الاتجاه.

وهذا ما نرى تجلياته الواضحة في حركة الأنبياء والأوصياء عبر التحولات التاريخية وما جسّدوه من إرادة وفعل للارتقاء بالإنسان إلى هذه المثالية حتى استحقوا كل الثناء والمديح بموجب تلك الإرادة المثالية والفعل المثالي بتحويل كل طاقاتهم وحواسهم وإخضاعها لهذين العنصرين ـ أي الإرادة والفعل المثاليين ـ فكان هذا الاستحقاق للمدح والثناء في الخطاب القرآني ذا دلالة مهمة جداً تنتقل بالمتلقي إلى الحضور النفسي في مضمونه وتلمس دروبه حين يستقر في مسامعه نداء الحق تعالى: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [1].

---

(١) الأعراف: ٤٣.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

المستوى الثاني

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٢].

لعل أكثر الأسئلة التي تدور في أذهان الكثير من الناس هو السؤال التالي:

لماذا لا يستطيع الإنسان اكتساب هذه المثالية بدون جهد كبير؟

وبصيغة أخرى:

لماذا ارتبط تحقق واكتساب الكمال للإنسان بالمشاق والصعوبات؟

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) الرعد: ١١.

وهل بلوغ الكمال لا بد أن يكون عسيراً بمثل ما يصفه لنا الكثير من الوعّاظ والعلماء حتى أصبح كالخيال والأحلام في أذهان الكثير؟

وفي هذه الفرضية وهي أن المثالية مرغوبة من الجميع وهو ما تحدثنا عنه في جزء سابق من هذا البحث.

إن من الأخطاء التي وقع فيها الكثير هو اعتبار هذه المثالية غير ممكنة التحقق أو مستحيلة المنال بالجهد القليل .

ويجب التأكيد هنا أن هذا الجهد قليلاً كان أو كثيراً فهو لا يحقق المثالية المرجوة أبداً وذلك لاقتران الحصول أو الوصول للحد الأدنى من هذه المثالية بعنصر لا غنى عنه أبداً ألا وهو الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

فالمثالية إذن قريبة المنال من الإخلاص؛ لأن الإخلاص ليس صفة نسبية حتى لا يكون وسيلة تامة لبلوغ نتيجته الطبيعية وهي المثالية كما أنها ليست مشروطة بعلم ومعرفة وإن كانت المعرفة والعلم من الوسائل المهمة لاكتسابها وتحقيقها، وقد أكد الخطاب القرآني هذا الأمر كثيراً في آياته قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا**

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[١].

وأما الإخلاص[٢] فهو تلك الحالة الروحية التي يعيشها الإنسان كما يوضحها القرآن من خلال الشعور النفسي في الإنسان عندما يستشعر الحاجة إلى خالقه قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ**

---

(١) البينة: ٥.

(٢) مما لا شك فيه أن من شروط الإخلاص أداء الفروض والتكاليف بالطرق المعتبرة عقلاً ـ الاجتهاد أو الاحتياط ـ أو شرعاً من قبل أهل الاختصاص وهم العلماء المقتدرون على الاجتهاد حسب الشروط المقررة لذلك ولكون تقليدهم مبرءاً للذمة أمام الله سبحانه، ولا يكفي أن يقال: خلوص النية في أداء تلك الفروض كفيل بإسقاط تكليفها مع عدم مطابقتها للواقع أو عدم إحراز المعذرية في أدائها .

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

بهـذا يتـبين لنا أن استصحاب الحاجة إلى الله سبحانه في كل زمـان ومكـان وفي كل حالة يعيشها الإنسان سواء كان في شدة أو في رخـاء هـي أمـر لازم لاكتساب الإخلاص، وأن لا غنى للإنسان عن هذه الحاجة أبداً، ومع إسقاط هذه الحاجة وانعكاسها على تصرفات الإنسـان بحاجـته إلى الله سـبحانه والفقر إلى غناه اللامحدود وديمومة هـذا الشـعور وتـأثيره عـلى تصرفات الإنسان فذلك هو ما يوصل الإنسان إلى المثالية التي رسمها وحدد معالمها لنا القرآن في خطابه.

لكـي يعـيش الإنسـان هـاجس الـتحرك إلى الأمـام ولكي لا يأنس بحالة الجمود أو الرضى بما اكتسب من واقع وهناك قابلية عند هـذا الإنسـان لاكتسـاب المـزيد للـتقدم، لذلـك كلـه جاء الخطاب القـرآني مليـئاً بـالدفع والحـث عـلى أن لا يـركن هذا الإنسان إلى الخمـول والجمـود حتى ولو كان هذا الواقع جيداً قال تعالى: ﴿وَقُلِ

---

(١) يونس: ٢٢.

اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

إذن ليس لهذا التحرك محدودية معينة يدّعي أحد أنها آخر المنعطفات المثالية من الممكن اكتسابها .

وهل هناك حدود لهذه الإنسانية المتاح للكل أن يتلبسها أو أن يتقلب في أسرتها الوثيرة أو أن تصهره أشعتها الدافئة تحت سياط المتربصين لسالكي طريقها؟

بل لا حدود أبداً لذلك غير تلك الرغبة التي يتلبسها الإنسان بالركون إلى الكسل أو عدم الرغبة في تحمل المسؤولية التي يستطيع أن يتحملها وبحسب إخلاصه وقدرته واستطاعته!

هكذا أتلمس واقع الخطاب القرآني في توجهه إلى المتلقي ، وهكذا يرتقي ذلك الخطاب بالنفس الإنسانية.

من عالم الماديات إلى عالم المعقولات اللامحدود، وليتجاوز عالم

---

(١) التوبة: ١٠٥.

المادة المحدود بالحواس الخمس التي يمتلكها الإنسان والتي تشاركه بها كافة الحيوانات إلى عالم أعلى ووجود أرحب وأرقى، وآخر دعوانا أن الحمد لله أولاً وآخراً.

المصادر

* القرآن الكريم.

١ــ الإسلام وإيران، الشهيد مرتضى مطهري.

٢ــ الإلهيات، الشخ جعفر سبحاني.

٣ــ أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، محمد أركون.

٤ــ البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي.

٥ــ التعرف على القرآن، الشهيد مرتضى مطهري.

٦ــ تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي.

٧ــ التوحيد والتربية الدعوية، فريد الأنصاري.

٨ــ الحكمة المتعالية، صدر الدين الشيرازي.

٩ــ رسائل العدل والتوحيد، لبعض الأئمة والأعلام، اختارها وقدم لها سيف الدين الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان.

١٠ــ رسالة التشيع (حوار مع المستشرق هنري كوربان) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي.

١١ـ رسالة الرد على الدهريين، السيد جمال الدين الأسد آبادي.
١٢ـ رسالة القرآن، الشيخ جوادي آملي.
١٣ـ سدّ باب الاجتهاد، عبد الكريم الخطيب.
١٤ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الشيخ عبدالرحمن الكواكبي.
١٥ـ العدل الإلهي، الشهيد مرتضى مطهري.
١٦ـ فلسفتنا، الشهيد محمد باقر الصدر .
١٧ـ في ظلال القرآن، سيّد قطب.
١٨ـ القرآن الكريم بُنيته التشريعية وخصائصه الحضارية، الدكتور وهبة الزحيلي.
١٩ـ قصة الفلسفة، وِل ديورانت.
٢٠ـ ماهية العمل التفسيري، الشيخ محسن الأراكي، دراسة منشورة.
٢١ـ محمد عند علماء الغرب، الشيخ خليل ياسين.
٢٢ـ معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، محمد أركون.

٢٣ـ الموسوعة الفلسفية العربية، عادل العوا.

الفهرست

تقديم الشيخ حسن النمر ٥
المقدمة ٧
البلاغة القرآنية ١١
علاقة المسلمين بالقرآن ٣٣
أولاً ـ الجانب الغيبي ٣٤
ثانياً ـ المضمون ٣٦
ثالثاً ـ شخصية النبي محمد ﷺ ٤٢
الآثار التاريخية لعلاقة المسلمين بالقرآن ٤٩
أولاً ـ الجانب الثقافي ٤٩
ثانياً ـ الجانب الاجتماعي ٥٣
الإنسان والقابلية ٥٩
مصادر المعرفة الإنسانية ٦٧
مفهوم الوجود والإنسان ٧٥
أولاً ـ العلاقة بين الخالق والمخلوق ٧٧

ثانياً ـ الدنيا والآخرة ٩٣
ثالثاً ـ معايير التفاضل ١٠٥
رابعاً ـ الاختلاف والتقدم الاجتماعي ١١٢
قواعد الدعوة في الخطاب القرآني ١١٧
القاعدة الأولى ـ التعقل ١١٧
القاعدة الثانية ـ الإرادة ١٢٥
الاستكبار والاستضعاف في مقابل التعقل والإرادة ١٣٣
أولاً ـ الجانب التكويني ١٣٦
ثانياً ـ الجانب التشريعي ١٣٧
أدوات الخطاب ١٤١
القسم الأول (غير المؤمنين) ١٤٣
المستوى الأول ١٤٣
المستوى الثاني ١٤٦
المستوى الثالث ١٤٩
المستوى الرابع ١٥٢
القسم الثاني (المؤمنون) ١٥٧

المستوى الأول ١٥٧
المستوى الثاني ١٦٢
المصادر ١٦٩
الفهرست ١٧٣